



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي
معهد العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين



الإمام محمد الفاضل بن عاشر (ت 1390 هـ) وجهوده في التفسير وعلوم القرآن

مذكرة تدخل ضمن متطلبات الحصول على شهادة الماستر

في العلوم الإسلامية تخصص: التفسير وعلوم القرآن

الأستاذ المشرف:

غريسي محمد الصالح

إعداد الطالبة:

ساسية جارالله

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
بوغزالة عبد الكريم	أ . د	جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	رئيسا
غريسي محمد الصالح	أستاذ مساعد	جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	مشرفا ومقررا
ريمي إدريس	أستاذ مساعد	جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	عضوا

الموسم الجامعي: 1438/1439 هـ . 2017/2018م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

أهدي ثمرة جهدي

إلى بسمة الحياة وسر الوجود، إلى من أو أوصلتني إلى رتب المعالي، إلى من كانت قدوتي في

الحياة، إلى من كان دعاؤها سر نجاحي، وحنانها بلسم جراحي، أدين لها بكل لحظة نجاح

أغلى الحبايب "أمي فاطمة "

إلى روح أبي الغالي "الطاهر"

إلى أخي الذي كان سندي في الدنيا ومداداً لا ينقطع "نور الدين" وعائلته

إلى أغلى ما أملك في هذه الحياة "أخواتي" العزيزات وعائلاتهن.

وإلى المخلصة "مسعودة خادم الله"

إلى كل الصديقات الوفيات كل واحدة باسمها

سأسية

شكر وعرفان

امثالاً لقوله تعالى: ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 07]

فإني أحمد الله على ما يسره لي من أمور الدين والدنيا، وأشكره على نعمه وفضله، حمداً
وشكراً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

وعملًا بما جاء في الحديث النبوي الشريف: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»
وفاء وتقديراً واعترافاً مني بالجميل، أتقدم بجزيل الشكر لأئلك المخلصين الذين لم يألوا جهداً
في مساعدتي في مجال البحث العلمي وأخص بالذكر الأستاذ المشرف: **مُحمَّد الصالح غريسي**
صاحب الفضل في توجيهي ومساعدتي في الدراسة وتجميع المادة العلمية فجزاه الله كل خير
كما أتقدم بجزيل شكري إلى كل من مد لي يد العون والمساعدة في إخراج هذا البحث على
أكمل وجه.

سأسية

ملخص البحث

بين دفتي هذا البحث دراسة حول جهود أحد أئمة المسلمين في خدمة القرآن الكريم ، وقد جاء

موسوما بـ : (الإمام مُحَمَّدُ الفاضل بن عاشور وجهوده في التفسير وعلوم القرآن).

وقد تناولت الدراسة التعريف بشخصية الإمام مُحَمَّدُ الفاضل بن عاشور من خلال استعراض ترجمة له،

وكذلك إبراز جوانب من سيرته العلمية.

كما حوت الدراسة في احد ثناياها الكلام عن كتابه التفسير ورجاله.

وقد تضمنت الدراسة أيضا بيان جهود الإمام في التفسير وعلوم القرآن.

ومن أبرز النتائج المتوصل إليها: أن الإمام مُحَمَّدُ الفاضل بن عاشور من الشخصيات المتميزة في التاريخ

الإسلامي، كما يعد كتابه التفسير ورجاله من الكتب الهامة في مناهج المفسرين.

Research Summary

This study includes a study on the efforts of one of the imams in the service of the Holy Quran, and it was referred to as: (Imam Muhammad al-Fadil bin Ashour and his efforts in interpretation and the sciences of the Koran).

The study dealt with the definition of the personality of Imam Muhammad al-Fadhel bin Ashour through a review of his translation, as well as to highlight aspects of his biography.

As the study whims in one of the words talk about his "Interpretation And His Men".

The study also included a statement of the Imam's efforts in interpretation and the sciences of the Quran.

The most prominent findings in this research is that Imam Muhammad al-Fadil ibn Ashour is one of the outstanding figures in Islamic history, and his book "Translation And His Men" is one of the important books of interpretation.

حقائق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمسلمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وبعد:

يقول المولى عز وجل: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29].

أنزل المولى عز وجل كتابه تذكرة لأولي الألباب، وتبصرة لمن أراد النجاة من العذاب، ولا سبيل لمعرفة مراد رب الأرباب، إلا بتفسير آيات الكتاب تفسيراً لا شك فيه ولا ارتياب، وهذا الأخير لا بد له من مستند يستند إليه وأصول يرتكز عليها كأي علم من العلوم حتى يظهر التفسير على أحسن وجه وأتمه.

وقد شهد هذا العلم عناية كبرى من قبل العلماء والباحثين، فأفردوه بالتصنيف والتأليف المستقل.

ومن بين هؤلاء عالم من كبار علماء الزيتونة وهو: الإمام محمد الفاضل بن عاشور (رحمه الله)، الذي ألف كتاباً يعد من الكتب المهمة لتاريخ علم التفسير والمراحل التي مرّ بها:

لذا ارتأيت لبحثي العنوان الآتي:

(الإمام محمد الفاضل بن عاشور وجهوده في التفسير وعلوم القرآن)

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في:

- تعلق موضوع البحث بكتاب الله تعالى، حيث تناول الجهود التي بذلت في خدمة القرآن

الكريم، وشرف العلم بشرف المعلوم.

- الأهمية البالغة لهذا الإمام ومكانته العلمية.
- عدم خوض الباحثين - على حد علمي - في دراسة جهود الإمام مُحَمَّد الفاضل بن عاشور في خدمة كتاب الله والتفسير.
- دراسة أحد الكتب المهمة في المناهج التفسيرية.
- التعرف على مصنفات لها علاقة وطيدة بكتاب الله عز وجل.

الإشكالية:

يتمحور البحث حول دراسة جهود الإمام مُحَمَّد الفاضل بن عاشور في التفسير وعلوم القرآن وتبرز هنا إشكالية محورية وهي: فيما تتمثل جهود الإمام مُحَمَّد الفاضل بن عاشور في التفسير وعلوم القرآن؟ ويندرج تحت هذا السؤال أسئلة فرعية:

أ _ من هو مُحَمَّد الفاضل بن عاشور وما هي أهم العوامل التي أثرت في شخصيته، وما نوع المنهج التفسيري الذي تأثر به ؟

ب _ ما هي الآثار التي خلفها في التفسير وعلوم القرآن؟

ج _ فيما تتمثل أهمية كتابه التفسير ورجاله ؟

أسباب اختيار الموضوع:

- كون الموضوع في مجال تخصصي بين تفسير القرآن وعلومه.
- مكانة الشيخ العلمية بين أقرانه وزملائه فهو إمام عالم باللغة والتفسير، والفقه وغيرها من العلوم.
- قلة الدراسات حول هذا العالم الجليل.
- الرغبة في دراسة كتابه التفسير ورجاله، وإظهار مكانته العلمية.
- إبراز جهود علماء المغرب العربي في التفسير وعلوم القرآن.

-أهداف البحث:

إن الهدف من تناول هذا الموضوع يتمثل في:

- التعريف الموسع بالإمام مُجَدِّد الفاضل بن عاشور، والكشف عن جوانب من شخصيته.
- إبراز ما للإمام مُجَدِّد الفاضل بن عاشور من جهود في التفسير وعلوم القرآن.
- تقديم دراسة عن كتابه التفسير ورجاله.

-منهج الدراسة:

- 1 - المنهج الوصفي في المبحث الأول، والذي تضمن ترجمة الإمام مُجَدِّد الفاضل بن عاشور، وهو المناسب.
- 2 - كما اتبعت المنهج الاستقرائي في المبحث الثاني الذي تطرقت فيه إلى دراسة كتاب الشيخ وجهوده في التفسير وعلوم القرآن.

أهم الخطوات المنهجية:

أما بالنسبة لطريقتي في هذا البحث فكانت كالآتي:

- 1 - عزو الآيات القرآنية في متن البحث بذكر اسم السورة ورقم الآية.
- 2 - تخريج الأحاديث النبوية الواردة في متن البحث من كتب السنة.
- 3 - ضبط الكلمات بالشكل إذا دعت الحاجة لذلك.
- 4 - عند توثيق المصادر والمراجع، أذكر كل المعلومات عند أول ذكره: المؤلف، المؤلف، رقم الطبعة ودار النشر، ومكان الطبع وتاريخه، واسم المحقق إن وجد وإن لم يوجد لا أشير إلى ذلك.

الدراسات السابقة:

في حدود علمي ومن خلال بحثي في الشبكة العنكبوتية لم أجد دراسات أكاديمية سابقة حول الشيخ وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، باستثناء هذين المقالين:

- المقال الأول بعنوان: مسيرة علم التفسير من منظور مُحمَّد الفاضل بن عاشور في كتابه (التفسير ورجاله) للدكتور عبد الرحمن حللي في مجلة الدراسات القرآنية العدد (11/1433هـ)، والذي يقع في 47 صفحة تناول فيه الباحث بالتحليل والنقد رؤية العلامة التونسي الإمام مُحمَّد الفاضل ابن عاشور لتأريخ علم التفسير والمراحل التي مر بها، كما استخرج المنطلقات التي يستند إليها، مع تسجيل بعض الملاحظات النقدية التي يمكن تسجيلها على رؤى الإمام وهو بحث مهم لإحاطته بكل جزئيات الكتاب، وقد استفدت منه كثيرا في دراستي.
- المقال الثاني بعنوان: من قضايا تأويل النص القرآني عند الشيخ مُحمَّد الفاضل بن عاشور — علي بن مبارك — مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث قسم الدراسات الدينية، الرباط المملكة المغربية، وعدد صفحاته 18 صفحة، عالج فيه الباحث إشكالية تأويل النص القرآني وسبله الممكنة عند الإمام، كما تناول السياقات والخلفيات التي أسهمت في رسم معالمه، ثم تكلم عن موقف الإمام من ظاهرة الاختلاف في التأويل.

إضافة إلى دراستين لم أتحصل عليهما:

الأولى: لمناعي حسن، مُحمَّد الفاضل بن عاشور وجهوده في بناء النهضة، وهي رسالة دكتوراه بحث عنها الأستاذ المشرف في دوريات جامعة الزيتونة ولم يجدها.

الثانية: لأحمد عمار المختار، الفاضل بن عاشور حياته وأثره الفكري.

مجال البحث:

يبحث هذا الموضوع في مجال مشترك بين الترجمة للإمام الجليل، وإبراز جهوده المذكورة في خدمة كتاب الله، حيث يتناول:

أولاً: تعريف بالظروف التي عاش فيها الإمام محمد الفاضل بن عاشور مع ترجمة له وللشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، كذلك التلاميذ الذين تلقوا عنه، وإحصاء بعض آثار هذا العالم الجليل.

ثانياً: ويتناول الشق الثاني منه دراسة كتابه (التفسير ورجاله)، وجهوده في التفسير وعلوم القرآن.

مصادر البحث: اعتمدت في هذا البحث على عدة كتب منها:

- التفسير ورجاله لمحمد الفاضل بن عاشور.
- المحاضرات المغربية لمحمد الفاضل بن عاشور.
- ومضات فكر لمحمد الفاضل بن عاشور.
- كتاب تراجم الأعلام لخير الدين الزركلي.
- أعلام تونسيون لصادق الزمري.
- معجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ.
- من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة للمستشار عبد الله العقيل.

الصعوبات: لا يخلو أي بحث من صعوبات ومعوقات تنغص على الباحث طريقه، ومن أهم الصعوبات التي واجهتني:

- عدم حصولي على بعض كتب الشيخ محمد الفاضل بن عاشور.

خطة البحث:

قسمت موضوع البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة، أما المقدمة فتناولت فيها أهمية الموضوع، سبب اختياري له، أهدافه، الدراسات السابقة، المنهج المتبع، وأهم الخطوات التي سرت عليها.

أما الفصل الأول فتناولت فيه التعريف بالإمام محمد الفاضل بن عاشور وقسمته إلى ثلاثة مباحث، حيث يتضمن المبحث الأول عصر الإمام ، أما المبحث الثاني فتحدثت عن حياته، ثم تضمن آخر مبحث في هذا الفصل آثاره ووظائفه وثناء العلماء عليه. أما الفصل الثاني تناولت فيه جهود الإمام محمد الفاضل بن عاشور في التفسير وعلوم القرآن وقسمته إلى مبحثين جعلت المبحث الأول منه بطاقة عن كتاب التفسير ورجاله، أما المبحث الثاني فتكلمت فيه عن جهود الإمام في التفسير وعلوم القرآن.

وختمت البحث بخاتمة أوجزت فيها ما توصلت إليه من أهم النتائج والتوصيات.

وفي الختام أتقدم بالشكر الجزيل لمن ساعدني في إعداد هذا البحث

الفصل الأول: التعريف بالإمام مُحَمَّد الفاضل بن عاشور

المبحث الأول: عصر الإمام مُحَمَّد الفاضل بن عاشور

المبحث الثاني: حياة الإمام مُحَمَّد الفاضل بن عاشور

المبحث الثالث: آثار الإمام ووظائفه وثناء العلماء عليه

الفصل الأول: التعريف بالإمام محمد الفاضل بن عاشور

نتحدث في هذا المبحث عن البيئة التي عاش فيها الإمام محمد الفاضل بن عاشور من الناحية السياسية والاجتماعية والعلمية الثقافية، وما هو الدور الذي لعبته في تكوين شخصيته.

المبحث الأول: عصر الإمام

المطلب الأول: الحالة السياسية

كانت تونس في شباب محمد الفاضل بن عاشور لا تزال تحت وطأة الاحتلال الذي فرض حمايته عليها ، حيث عملت فرنسا منذ أن استتب لها الأمر في الجزائر على السيطرة على البلاد التونسية¹.

وقد تحقق لها ذلك في عام 1881م؛ إذ تذرعت بهجوم بعض القبائل التونسية على الحدود مع الجزائر لتتدخل عسكريا في البلاد التونسية، وتحاصر قصر الباي بباردو يوم 12- 05- 1881م، وقد عرض قائد الجيش الفرنسي الجنرال (بريار) والقنصل (روسطان) على (محمد الصادق باي) نص معاهدة (باردو)، التي فرضت بمقتضاها (الحماية)² على تونس³.

ثم عملت سلطة الحماية على تجريد الباي من جميع صلاحياته التشريعية والتنفيذية وذلك بتأويلها نصوص المعاهدات طبقا لأوامر لاحقة يتخذها المقيم العام الفرنسي بتونس فصار الباي يوقع على الأوامر دون أن يستشار في صياغتها⁴.

قامت فرنسا بتثبيت الوضع الاحتلالي في البلاد وذلك بقمع المقاومة التونسية بكل شدة ؛ حيث أنشأت مجلسا استشاريا، كما فتحت الباب على مصراعيه لمن يريد أن يهاجر إلى تونس من الفرنسيين والإيطاليين، واشتدت وطأة الفرنسيين على أهل البلاد، وأحس بذلك المسلمون؛ ذلك لأن

¹ ينظر: دعوة الحق، جوانب من شخصية الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، تاريخ: التصفح: 12 ماي 2018.

www.habous.gov.ma

² الحماية: هو نظام يستند على معاهدة باردو الذي ينص الفصل الرابع منها على أن فرنسا يمثلها في تونس (مقيم عام) يكون الواسطة بينها وبين الحكومة التونسية كما ينص الفصل الخامس على أن علاقات تونس الخارجية تكون لنواب فرنسا السياسيين في الخارج . ينظر: حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس (ط:3، دار الكتب العربية والشرقية، تونس)

³ ينظر: راغب السرجاني، قصة تونس من بداية الثورة إلى 2011م (ط:1، دار الأقلام، القاهرة 2011م، 1432هـ)، ص21.

⁴ ينظر: يوسف مناصرية، دور النخبة الجزائرية في الحركة الوطنية التونسية بين الحربين العالميتين 1919- 1934، (ط:لا، دار هومة، الجزائر، 2014) ص21.

فرنسا كانت تركز على تذويب الهوية الإسلامية لأي بلد تدخله، وتستهدف النواحي الثقافية للمسلمين مما جعل المسلمين ينتفضون مرة بعد مرة، وفرنسا في كل مرة تستخدم الشعار المعروف (لا هوادة).

وقد سنت فرنسا جملة من القوانين أهمها: قانون الجنسية الجديد الذي يجيز سحب الجنسية التونسية وإعطاء الجنسية الفرنسية مكانها لمن يطلبها، فيصبح حاملها تلقائياً من رعايا فرنسا، ويستحق حمايتها ودعمها، ولكن الشعب التونسي رهلى هذا القرار اجتماعياً وعقدياً¹.

وبعد تغير الحكومة الفرنسية، جاء الاشتراكيون وأظهروا أنه لا يمكنهم التفاهم ولا التفاوض إلا مع الاشتراكيين التوانسة فقط، وكان هذا سرّاً كبير وقع فيه الشباب المتطلعون إلى الظهور والشهرة، فظهر الحزب الاشتراكي التونسي، وبرزت أسماء مثل: (الشاذلي خير الله²، والحبيب بورقيبة³، و محمود الماطري⁴) وكانوا شباباً وقد عملت سلطة الاحتلال الفرنسية على تلميعهم وإبرازهم بالطرق المعروفة؛ مثل الاعتقال، والنفي، والهجوم في الصحف فأصبحت المقاومة التونسية علمانية الطابع، اشتراكية التوجه، ومع مرور الوقت زالت التوجهات الإسلامية، التي تقلق أي محتل خاصة الصليبي.

وكانت السياسة الاستعمارية في تونس تتمثل في ما يلي:

أولاً: السيطرة السياسية دون إلغاء منصب الباي كما فعلت في الجزائر.

ثانياً: تعيين مقيم عام فرنسي بمرسوم صادر عن رئيس الجمهورية الفرنسية وهو حاكم عام للبلاد

وسكرتير عام للحكومة التونسية وهو يشبه رئيس الوزراء.

¹ ينظر: راغب السرجاني، قصة تونس من بداية الثورة إلى 2011م، ص 37.

² هو الابن الأكبر للمرحوم الجنرال خير الله بن مصطفى ولد سنة 1898 ولقد شب الطفل في ظل ذلك الأب الشهم شديد المراس وبعد حصوله على البكالوريا أكتب في الصحف الناطقة بالفرنسية في جريدة الصوت التونسي، كما تبحر في علم التاريخ والاستشراق، وألقى العديد من المحاضرات توفي سنة 1972، ينظر: صادق الزمري، أعلام تونسيون، (ط: لا، دار الغرب الإسلامي، بيروت) ص 345-346.

³ ولد الرئيس التونسي السابق الحبيب بورقيبة في 3 أغسطس 1903م في حي طرابلس في مدينة المنستير الساحلية، تلقى تعليمه بالمعهد الصادقي ثم معهد كارنو بتونس ثم تم اختياره كأول رئيس جمهورية لتونس بعد إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية سنة 25 مايو 1957م وذلك بعد خلع محمد الأمين باي توفي في 06 أبريل 2000م.

⁴ محمود الماطري ولد بمدينة تونس 1897م جده ووالده الشيخان أحمد والمختار الماطري مدرسين حنفيين من مدرسي جامع الزيتونة درس بالصادقية ثم انخرط في كلية العلوم والمدرسة الطبية بمدينة ديجون بفرنسا توفي سنة 1972م. ينظر: صادق الزمري، أعلام تونسيون، ص 355-356.

ثالثاً: إقامة مجلس استشاري للرقابة المالية يمثل أصحاب المصالح من الفرنسيين مهمته النظر في الموازنة والموافقة عليه.

رابعاً: وضع نظم إدارية تخدم مصلحة الفرنسيين، وتسهيلات مهمة لرجال الاحتلال.

خامساً: احتكار الإدارة العامة والمناصب الكبرى بتعيين رجال عسكريين فرنسيين مسئولين عنها.

سادساً: وضع رقابة على دخل البلاد بحجة تأمين مصالح أصحاب الديون، الأجانب على التونسيين مما سهل سيطرة الفرنسيين على أرض تونس، لاسيما الخصب منها¹.

ومع أن التونسيين قاموا بثورات بعيدة يد الاحتلال الفرنسي، وكذلك قاموا بثورة في مطلع الحرب العالمية الأولى، إلا أنهم فضّلوا العمل السياسي المنظم وبعد حركتين أوليتين على يد الشيخ محمد السنوسي والشيخ المكي بن عزوز (إذ نفي الأول وأرغم الثاني على الهجرة) بدأ العمل السياسي المنظم عام 1905م على يد الجماعة الحاضرة، لكنه اتخذ شكلاً أكثر تنظيمًا في عام 1908م لما قام (حزب تونس الفتاة)²، وكان علي باشا حامي المنظم له حتى سنة 1911م إذ نفي من البلاد ولقد استفاد بعض الساسة من مؤتمر الصلح فنظموا أمورهم وقاموا بتأسيس الحزب الدستوري برئاسة الشيخ (عبد العزيز الثعالبي)³ والذي تقدم إلى الحكومة و طالب بإنشاء مجلس تشريعي مختلط الأعضاء (تونسيين و فرنسيين)، وحكومة مسؤولة أمامه، والفصل بين السلطات الثلاث، كما يسمح لتونسيين أن يؤثروا في حكومتهم، وامتلاك الأراضي من صلاحية إدارة الشؤون الزراعية وتقرير حرية الصحافة، كما جعل التعليم إلزاميًا⁴ متذكراً إلى الرئيس الأمريكي (ولسن) في باريس طالب الحزب فيها باستقلال تونس⁴.

¹ جميل بيضاء، شحادة النور وآخرون، تاريخ العرب الحديث (ط:1، دار الأمل، 1992م)، ص112.

² هي حركة سياسية منظمة لمقاومة الاستعمار، تأسست سنة 1907م على يد جماعة من الشباب مثل علي باشا حامي وعبد العزيز الثعالبي. ينظر: أحمد القصاب، تاريخ تونس المعاصر 1881م - 1956م (ط:1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986م) ص493.

³ عبد العزيز الثعالبي بن إبراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي الزعيم السياسي والكاتب المفكر والمصلح الإسلامي، أصله من أسرة جزائرية هاجرت إلى تونس بعد الاحتلال ولد بتونس سنة 1879م، درس بجامع الزيتونة وأخذ عن سالم بوحاجب وهو صاحب كتاب تونس الشهيدة توفي في أكتوبر 1944م. ينظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج1، ص213.

⁴ ينظر: محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس (ط:3، دار سراس، تونس)، ص118.

المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية

لقد أثر الاحتلال الفرنسي على كل جوانب الحياة في تونس وخاصة الأحوال الاجتماعية منها، فسادت روح المحق والقضاء المبرم على الشعوب. فانتشرت الأمراض وخاصة المعدية منها، وفتكت بالشعب وعم الفقر والجوع وكثر عدد المتسولين. وكان المسلمون لا يتمتعون بأي ضمان اجتماعي يحميهم من حوادث الشغل وغيرها بل أصيبوا بمرض خطير على النفوس والقلوب شجعتهم الإدارة الفرنسية على تعاطيه، فعملت فرنسا على ترخيص فتح الحانات والملاهي. فأصيب التونسيون بأمراض أخطر من السل وهي الوباء وعلى رأسها الإدمان على الخمر¹.

حيث كانت الخمور مجهولة في تونس تقريباً قبل الاحتلال، بل كان تعاطيها محصوراً في الوسط الأوروبي وجماعة قليلة من الإسرائيليين لكن جيوش الاحتلال جاءت بها ومعها الحضارة الفرنسية، حيث ساهمت مساهمة فعالة في تثبيت وتدعيم النظام الجديد، لأنها أرهقت الصحة والثروة العامتين وما فتئت هذه الآفة أن ولدت معها أخريات كالدعارة والإباحية والجريمة، هذا الذي استعملته الحكومة الفرنسية كوسيلة للخلاص من النخبة التونسية والثروة التونسية، وبالرغم من رد الفعل الذي جاء متأخراً ومنع بيع الخمور للتونسيين خاصة في المدن الكبرى فإن الكحول لعبت دوراً أساسياً في عدد الوفيات كما لعبت الخدمة العسكرية دوراً بارزاً في انحلال النظام الاجتماعي حيث كان التونسي فيها يتعلم كل أنواع الفساد والانحلال الخلقي، والذيلة، على شكل يصبح فيه ثائراً على شرائع العائلة والمجتمع².

¹ ينظر: يوسف مناصرية، دور النخبة الجزائرية في الحركة الوطنية التونسية بين الحربين العالميتين، مرجع سابق، ص45.

² ينظر: عبد العزيز الثعالبي، من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، ترجمة: صالح الخريفي (ط:1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م)، ص160 -

المطلب الثالث: الحالة العلمية

ركزت فرنسا على محو الشخصية الإسلامية العربية وطمس الهوية التونسية فعملت جاهدة على محاربة اللغة العربية والفكر الإسلامي إذ سعت إلى نشر اللغة الفرنسية وتشجيع التنصير، فقطعت الإعانات على المدارس الإسلامية فضعفت وانقضت أكثرها¹.

كما سيطرت فرنسا على التعليم فأخضعته للنظم الفرنسية حتى أصبح الطالب يتقن الفرنسية ويفقه أسرارها ويتذوق أدبها، أما أدبه ولغته فهي أمور بعيدة عنه.

بالإضافة إلى إدخال التعليم الفرنسي في مدارس خاصة لأبناء طبقة معينة من أجل تخريج فئة معجبة بالثقافة الفرنسية لتكون عوناً لفرنسا في السيطرة على الشعب التونسي، كما أنشأت مدارس لأبناء التونسيين منعت فيها الثقافة العربية لإدخال بعض أبناء الطبقة الخاصة من العرب الذين تخرجوا منها جاهلين لغتهم وتراثهم ومنعت المدارس العربية².

"ولقد حاولت الإدارة الاستعمارية أن تقنن في إجراءاتها بهدف القضاء على اللغة العربية والشخصية الوطنية؛ فقد أصدرت قوانين عدة في هذا المجال تطالب بأن يقتصر التعليم فيه على حفظ القرآن، وعدم التعرض لتفسير الآيات التي تدعو إلى التحرر، واستبعاد دراسة التاريخ العربي الإسلامي والتاريخ الوطني المحلي، وجغرافيا القطر التونسي والأقطار العربية الأخرى، إضافة إلى عدم دراسة الأدب العربي"³.

"حيث كان بصيص الأمل يتمثل (بجامع الزيتونة)⁴ الذي اقتصر التعليم فيه على العلوم الدينية واللغوية ونشر الثقافة الإسلامية، لذلك كان جامع الزيتونة الحصن الحصين للثقافة العربية الإسلامية لكل المغرب العربي والذي لم يستطع الفرنسيون السيطرة عليه"⁵.

¹ ينظر: إسماعيل أحمد باغي، محمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، (دار المريخ، الرياض، 1993م) ج2، ص104.

² ينظر: طاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة 1830-1956م (ط2: دار المعارف، تونس، 1990م) ص31.

³ ينظر: أحمد قصاب، ينظر: أحمد القصاب، تاريخ تونس المعاصر 1881م - 1956م، مرجع سابق، ص322.

⁴ هو أول جامعة في العالم الإسلامي ويعتبر أقدم جامعة في تونس بعد جامع القيروان وهو عبارة عن جامع وجامعة بمدينة تونس، يرجح أن أول من بناه هو حسان بن نعمان عام 79هـ. ينظر: الطاهر المعموري، جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركلي (ط: لا، دارالعربي للكتاب) ص45 - 46.

⁵ جميل بيضون و آخرون، تاريخ العربي الحديث (ط: 1، دار الأمل للنشر والتوزيع، 1992م)، ص29.

لا جرم أن تلك الجوانب النشيطة في الميدان السياسي والاجتماعي والثقافي قد ساهمت في تحقيق تلك النهضة التي عمل الإمام مُحَمَّد الفاضل بن عاشور على إرساء قواعدها وترسيخ قوايلها لإعادة بناء وطنه تونس¹

¹ ينظر: صادق الزمري، أعلام تونسيون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 352.

المبحث الثاني: حياة الإمام محمد الفاضل بن عاشور

أتحدث في هذا المبحث عن حياة الإمام اسمه، نسبه، نشأته، شيوخه وتلاميذه، طلبه للعلم ورحلاته العلمية.

المطلب الأول: اسمه ونسبه ونشأته

أولاً: اسمه

هو محمد الفاضل بن محمد الطاهر بن محمد بن عاشور¹.

ثانياً: نسبه

هو محمد الفاضل بن (محمد الطاهر الثاني)² بن محمد الطاهر الأول بن محمد بن الشاذلي بن عبد القادر محمد بن عاشور الشريف الأندلسي ثم التونسي، إذ كان عاشور الجد الأعلى للعائلة إماماً أندلسي الأصل شريف النسب فأسرة آل عاشور تنتمي إلى أصل أندلسي، وقد تميز أفرادها بهذه الأنشطة التعليمية والدينية كالتدريس والإشراف عن المساجد واشتهرت بالفضل والعلم.

ثالثاً: مولده ونشأته

ولد محمد الفاضل بن عاشور (بالمرسى)³ من ضواحي (تونس)⁴ الشمالية، أو بتونس 2 شوال 1327 هـ الموافق لـ 16 أكتوبر 1909م سماه جده محمد الفاضل.

¹ محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1406هـ/1986م، ص310.

² هو محمد الطاهر بن عاشور ولد بالمرسى سنة 1879م نشأ في ظل رعاية جده الوزير الذي حرص على أن يكون خليفة في العلم والسلطان والجاه، حفظ القرآن على محمد الحياي ثم حفظ مجموعة من المتون العلمية في الرابعة عشر من عمره التحق بجامعة الزيتونة الأعظم سنة 1893م حيث أخذ النحو والبلاغة والمنطق والنحو وأصول الفقه والسيرة والتاريخ، فكان على اطلاع واسع وحفظ جيد وفهم عميق، أخذ عن جده لأم الشيخ محمد العزيز بن محمد الحبيب، من تلاميذه محمد الحبيب بن خوجة، ومن مؤلفاته أليس الصبح بقريب، توفي سنة 1973م. ينظر: بلقاسم الغالي: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ط1: دار بن حزم بيروت، 1996م) ص 35 – 36.

³ المرسى: ضاحية جميلة من الضواحي الشمالية للعاصمة التونسية تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط تبعد 20 كيلو متراً عن مدينة تونس.

⁴ تونس: مدينة بأرض العرب، كبيرة على ساحل البحر، أصبح بلادها هواء وأكثرها خيراً، ينظر: أحمد بن يوسف القرماني، أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، تحقيق: أحمد حطيط (ط1: عالم الكتب، 1995م) ج3، ص340.

لقد تعبت والدته في وضعه تعباً شديداً حتى خُشي عليها وعليه، وكان أول من عاش من الذكور وثالث الأبناء وله أختان أسنّ منه وهما أم هاني وصفيه، ثم ولد بعده ثلاث أخوة وهم: المرتضى وتوفي طفلاً في السابعة من عمره، وعبد الملك وزين العابدين.

ولقد نشأ محفوفاً برعاية جميع الأسرة بالرغم من هذه العناية الجماعية إلا أنه لم يلاحظ في سلوكه شيء من التصرفات المتعارف عليها عند الأبناء الذكور، الذين يولدون على شوق بعد انتظار طويل، بل خلاف ذلك كان غاية في حسن الأخلاق، وكان والده شديد العناية به يجمع بين الرفق والحزم. وسماه جده الأب (مُحَمَّد الفاضل) وتلك عادة عريقة في العائلة التونسية أن يتقدم الجد قبل غيره في المحافل في تسمية أحفاده لكونه رئيساً للعائلة¹.

تولي العائلة التونسية أبناءها عناية بالغة إذ تقوم على أصول مقدسة وآداب مقررة موروثية لا يمكن الحياد عنها أو تجاهلها يكون للأب فيها دور بارز خاصة فيما يتعلق في تربية أولاده وعلى تلك الأصول تأدب مُحَمَّد الفاضل وعليها رُبِّيَّ، وبها استقامت سيرته مع والده الذي كان يناديه "سيدي" محبة وتقديراً وتلك الآداب أيضاً انتظمت علاقته بالناس.

تعليمه:

في البيت حرص والده على تهيئته منذ الصغر للالتحاق بجامع الزيتونة فأخذ يتدرب في السادسة من عمره على ممارسة الحروف قراءةً وكتابةً، وبدأ حفظ القرآن وفي سنة العاشرة أتم ختمه وإعادة سلوكه ثانية تمكناً من حفظه.

وفي سنة 1340هـ/1922م ابتدأ أخذ دروس في مبادئ القراءات والتوحيد، والفقه، والنحو، بمسجد سيدي بوحديد المجاور لبيته بنهج دار الباشا بالعاصمة، وبفضل رعاية والده أصبحت له إمكانية الدرس واجتاز سنة 1340هـ/1922م امتحان الدخول إلى السنة الثانية من التعليم الزيتوني وشارك في مجلة الندوة في جامع الزيتونة تلقى من والده دروساً في التفسير، كما تعلم اللغة الفرنسية من معلم خاص في البيت وكان يحضر في مكتبة العطارين كذلك دروساً في الترجمة.

¹ نعيمة مُحَمَّد عبد الجواد، تحديد الخطاب الديني عند الفاضل بن عاشور، رسالة مكملة لنيل شهادة الماجستير، في الدراسات الإسلامية، جامعة الزاوية، ليبيا، 2013/2014، ص 12.

اجتاز بنجاح مناظرة التدريس من الطبقة الثانية سنة 1932م، وبعد مدة اجتاز كذلك بنجاح مناظرة التدريس من الطبقة الأولى. وفي مدة دارسته بجامع الزيتونة كان يعيش تحت مراقبة حازمة من قبل والده، فتنقله بين الجامع والمنزل ونظام أوقاته مضيق عليهما جدا لئلا ينعفس في حركات أدبية واجتماعية أو يختلط بجماعات تجعله غير ناجح في دراسته أو مقبلا عليها بكلل أو مشمئزاً منها ومفكراً في الانقطاع عنها كما كان شأن غيره من سلك هذا السبيل فكان من الحكمة الكبرى مراقبته والتضييق عليه ليقبل بجد على الدراسة لا غير.¹

ولما أحرز على شهادة التطويع زالت عنه قيود المراقبة والتضييق فقام بنشاط اجتماعي متعدد الجوانب والاتجاهات فعمل بالجمعية الخيرية وجمعية قدماء (الصادقية)² ولجان الحفلات بالمرسى والمنظمات التي أنشأها مع جماعة من زملائه الطلبة، ودخل المجلس الإداري (للخلدونية)³ بعد أن ربطه بالخلدونية رئيسها عبد الرحمن الكعك، وألقى محاضرات على منبر الخلدونية وكان موضوع أول محاضرة له عن: القاضي الفاضل عبد الرحمن البيساني.⁴

المطلب الثاني: شيوخه وتلاميذه

أولاً: شيوخه

لقد تتلمذ الإمام محمد الفاضل على ثلة من علماء الزيتونة وكان أولهم:

- شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حيث أخذ عليه التفسير وقرأ عليه موطأ الإمام مالك والمطوّل للتفتازاني في البلاغة وديوان الحماسة.

¹ محمد محفوظ، مرجع سابق، ص 310.

² الصادقية: وتسمى في الإصطلاح الرسمي المكتبة الصادقية نسبة إلى محييها بعد الاندثار وهو المشير "محمد الصادق باي" وجعل مركزها بالحل الذي كانت به المكتبة العبدلية بجامع الزيتونة وجمع بها أكثر ما تيسر له جمعه من التحايس التي كانت مشتهة بالمساجد والأضرحة والمدارس بتونس وخارجها ووضع لها قانون الانتفاع بتلك الكتب دون إخراجها من الجامع على قاعدة خزائن الكتب العمومية بأوروبا. ينظر: محمد بن خوجة، صفحات من تاريخ تونس، ط: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

³ هي جمعية تأسست عام 1896م بدعوة من زعيم الحركة الإصلاحية "بشير صفر" جمعية تساعد خريجي جامع الزيتونة بتحسين مستواهم العلمي. ينظر: محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 118.

⁴ محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ص 311.

كما كان يقرأ على والده كل ليلة من ليالي رمضان بعد صلاة التراويح، قدرا من كتب الحديث والرجال واللغة مثل: صحيح البخاري ومسلم، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ولسان العرب لابن منظور¹.

- العلامة الشيخ محمد بن يوسف² من كبار أعلام تونس في العصر الحديث ولد سنة 1863م قرأ على سالم بو حجاب وهو إلى جانب مكانته العلمية له ميل إلى الأدب يطالع الكتب وينظم الشعر وله ذوق أدبي رفيع، قام بتدريس مقامات الحريري بجامع الزيتونة، من مؤلفاته رسالة أدبية، توفي سنة 1939م³.
- محمد بن خوجة أستاذ فقيه ولد في فيفري سنة 1869م، ساهم في الحياة الثقافية والفكرية شارك في تأسيس الجمعية الخلدونية وكان من أبرز أعضائها، توفي سنة 1942م⁴.
- محمد الأصرم مصلح تونسي ولد 1858م ينحدر من أسرة عريقة أصيلة بالقيروان تولى التدريس في المدرسة الصادقية وجامع الزيتونة، توفي 1925م⁵.
- محمد بن أحمد العنابي ولد سنة 1887م من رجال التربية والتعليم ومن العلماء البارزين، درّس بجامع الزيتونة حيث تدرّج إلى الأستاذية وتولى الإفتاء المالكي، توفي سنة 1956م⁶.

ثانيا: تلاميذه

واستطاع كمدرس بالمعهد الصادقي وجامع الزيتونة تكوين أجيال عديدة ومنهم⁷:

- محمد الحبيب بن خوجة.
- محمد الشريف قاهر.
- الشيخ محمد الحواس بو سنة.
- الأستاذ السيد السحباني.

¹ المستشار عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة: ط: 8، دار البشير، 2008م - 1429هـ، ص 949.

² محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، ط: لا، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1999، ص 7.

³ المرجع نفسه، ص 149.

⁴ محمد بن خوجة، صفحات من تاريخ تونس، ط: 1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1986، ص 21.

⁵ صادق الزملي، أعلام تونسيون، مرجع سابق، ص 177.

⁶ محمد بودينة، مشاهير التونسيين، ط: 2، 1992م، ص 402.

⁷ صادق الزملي، أعلام تونسيون، مرجع سابق، ص 352.

- محمد محفوظ.
- عثمان الكعاك.

المطلب الثالث: رحلاته العلمية

وقد قام الإمام بعدة رحلات فقد بدأت رحلته أول مرة إلى فرنسا سنة 1926م، وكان عمره في ذلك الوقت 17 عاما وقال عن هذه المرحلة أنها تركت في نفسه أثرا قويا وذلك بتوجيهها إياه إلى تطلب نواحي العظمة والسيادة لوطنه تونس. ثم توالى رحلاته إلى أوروبا وغيرها من البلدان الإسلامية شرقية وغربية لأغراض علمية واستطلاعية وسياحية، فزار مصر مرات، والحرمين الشريفين أكثر من مرة، والجزائر، وزار المغرب الأقصى كما زار ليبيا مرة واحدة، ورحل إلى سوريا ولبنان وبغداد وإيطاليا وسويسرا وتركيا وألمانيا والنمسا واليونان وبلغاريا ويوغوسلافيا، وربط صلات مع كثير من رجال العلم والأدب ورحل للاشتراك في مؤتمرات المستشرقين عدة مرات، وفي مؤتمرهم المنعقد باسطنبول حضره بصحبة والده ودعيا للحضور بصفة شخصية لا يمثلان دولة ولا منظمة، وألقى فيها محاضرة باللغة الفرنسية عن كتاب (لابن حزم) في الاحتجاج لمذهبه ضد القياس، وقد ترجمها إلى العربية ونشرت في عدد من المجلة الزيتونية سنة 1952م. وفي سنة 1948م حضر بباريس مؤتمر المستشرقين بدعوة الكوليج دي فرانس قصد المشاركة في حوار علمي. والكوليج دي فرانس لا يفتح إلا في وجه صفوة الصفوة من العلماء¹.

¹ صادق الزملي، أعلام تونسيون، مرجع سابق، ص 312.

المبحث الثالث: آثار الإمام ووظائفه وثناء العلماء عليه

المطلب الأول: مؤلفاته

وكان لوالده الشيخ الطاهر بن عاشور مكتبة عامرة بنفائس التراث الإسلامي والعربي واستفاد منها الفاضل كثيرا، وأضاف إليها ما استجد من المؤلفات الإسلامية المعاصرة¹، وقد استنفذت محاضراته معظم طاقته الفكرية، فلم يتفرغ للتأليف تماما، كما أن كثيرا من محاضراته لم يكن يدونها، على أن ما بقي من تراث الرجل شاهد على غزارة علمه وسعة أفقه وإحاطته بالثقافة الإسلامية عن علم وبصيرة. وتدرج مؤلفاته في ميادين ثلاثة هي: التشريع الإسلامي، واللغة العربية والتاريخ الإسلامي وقد أسهم فيها جميعا بمؤلفات، وبحوث قيمة²، ومن أهم مؤلفاته:

أولا: الكتب المطبوعة³

- التفسير ورجاله.
- الحركة الفكرية والأدبية في تونس.
- تراجم الأعلام.
- أعلام الفكر الإسلامي في المغرب العربي.
- فلسطين الوطن القومي للعرب.
- ومضات فكر.
- المحاضرات المغربية.
- أركان النهضة الأدبية في تونس.
- الاجتهاد ماضيه وحاضره.
- المصطلح الفقهي في المذهب المالكي.
- روح الحضارة الإسلامية.

¹ المستشار عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، مرجع سابق، ص 950.

² أحمد تمام: مقال محمد الطاهر بن عاشور على خطى الإصلاح، تاريخ التصفح: 12 مارس 2018، archue.islamonline.com.

³ - خير الدين الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج 6، ص 326. انظر: محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج 3، ص 314.

ثانياً: الكتب المخطوطة¹

- تفسير القرآن بالأحاديث النبوية (أعد ولم يصدر)
- في الحضارة الحفصية.
- حديث الأربعاء
- معجز أحمد (تحقيق)

المطلب الثاني: أعماله ووظائفه

وقد تمكن من الحصول على الشهادات العلمية التي فتحت له أبواب التعليم العالي على مصراعيه، حيث سيظهر ما كان يتميز به من مؤهلات نادرة في جميع العلوم. ولقد تقلد الشيخ عدة مناصب في الدولة كان أهمها:

- مثّل تونس في مؤتمرات عديدة.
- شغل منصب رئاسة الجمعية الخلدونية في جوان 1945.
- ترأس (الاتحاد العام التونسي للشغل)، الذي كان من مؤسسيه مدة عامين.
- أسس معهد الحقوق العربي ومعهد البحوث الإسلامية، وألقى على منبرهما محاضرات قيمة.
- عمل بكل ما أوتي من قوة على انعقاد مؤتمر الثقافة الإسلامية بتونس، في سبتمبر 1949 رغم العراقيل والصعوبات.
- شارك في مؤتمر المستشرقين بفرنسا سنة 1948، ومؤتمر المستشرقين بتركيا 1951.
- تولى منصب الإفتاء المالكي في نوفمبر 1953.
- اختير لعضوية مجمع البحوث الإسلامية سنة 1962².
- عين عميداً للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، ومفتياً للجمهورية عام 1961.
- اختير عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة 1961³.

¹ - محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، د ص.

² - صادق الزملي، أعلام تونسيون، مرجع سابق، ص 351.

³ عبد السلام بن سودة، اتحاد المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع عشر، ط: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ج 2، ص 604.

المطلب الثالث: ثناء العلماء عليه

وقد أثنى على الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، جماعة من أهل العلم منهم:

- الشيخ محمد الحبيب بن خوجة: "خطيب قدير واسع الاطلاع دقيق المعرفة وأديب راسخ الأدب مدرّس عبقرى تتلقّ ف معلوماته الأذهان قبل الأذان"¹.
- الدكتور إبراهيم مذكور: "كان عالما كبيرا، وإماما من أئمة الأدب واللغة والفقه والتشريع، ورائدا من رواد الإصلاح والتجديد، كان حجة في تراثنا الإسلامي جميعه، وبخاصة ما خفي منه من أخبار المغرب، وبلاد الأندلس، وكان محيطا بثمار الثقافة العربية وما انتهت إليه من علم وثقافة"².

- الشاعر عبد السلام محمد خليل:

يا فاضل ما كنت إلا فاضلا	وسواك من أهل النهى المفضول
قد كنت عالم تونس تشدو به	مزهوة وعلى الزمان تطول
بل كنت من آي الفخار لشرقنا	تعلي منارة مجده وتطويل
حتى بكت مسراك من أعماقها	زوراؤه وشامه والــــنيل
وهنا يشاد بفاضل وعلومه	وله يصاغ من الثنا اكليل
وتترجم الخطب الجسيم محافل	فيها شآبيب الدموع تسيل
ويسودها جو كثيب غائم	وأسى يرين على النفوس ثقل
وهناك تروى للفقيد مناقب	وضاءة كالشمس حين تزول
إننا عرفناه خليفة (مالك)	قد زانه المعقول والمنقول
وسنا به أدب رفيع ماله	في ما رأيت وما سمعت مثل
وإذا تفجر بالبيان محاضرا	شدّت إليه مسامع وعقول
فهو (ابن رشد) باحثا ومفكرا	وتخاله (النعمان) حين يقول

- الشيخ هشام بن محمود: "الشيخ محمد الفاضل بن عاشور هو بحق نتاج الشجرة العاشورية المباركة، التي كان أصلها ثابتا وفرعها في السماء، فكان بحق طرازا نادرا وقمة من قمم العلم

¹ محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، د ص

² - المستشار عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، مرجع سابق، ص 953.

والنبوغ والفصاحة، جمع الله في شخصه روعة القلم وفصاحة اللسان، إذا تكلم اهتزت لكلامه وكلاماته الأسماع والأبصار، وإذا حاضر أبدع بشكل يدل على إحاطته وإلمامه واستيعابه للمشكلات والقضايا وقدرته الفائقة على تفسير المبهمات وتوضيح المشكلات¹.

المطلب الرابع: وفاته

ألمَّ به مرض عضال فأثكَّ قواه، وأثكل جسمه وبدأت عليه علامات مرض قوية بارزة خاصة إثر عودته من القاهرة في شهر يناير 1970م فأبى والده رغم تقدم سنه إلا أن يصاحبه إلى فرنسا ليراقب معالجته ويكون بجانبه حيث أجريت له فحوص طبية وعمليات جراحية فلما زادت صحته تدهورا أيقنت أسرته عدم جدوى العلاج وعادت به إلى تونس.

التحق الإمام الفاضل بن عاشور بجوار ربه يوم الاثنين 14 صفر 1390هـ / 20 أبريل 1970م وعمره 63 سنة، وكان لموته رجة رددتها وكالات الأنباء العالمية وهزت قلوب تلاميذه وأصدقائه الذين أحبه ونصروه أثناء مسيرته العلمية، وشيع جثمانه من مقر سكناه بالمرسى إلى مثواه الأخير بمقبرة الزلاج بتونس العاصمة في موكب مهيب، احتشدت فيه جماهير غفيرة وحضرت فيه وفود إسلامية، حيث وضع التابوت لأداء صلاة الجنازة التي تولى إمامتها والد الراحل محمد الطاهر بن عاشور. وبفقده انطوت صفحة من صفحات الفخار للعلماء العاملين والدعاة المصلحين رحمهم الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين².

¹ المكتبة القيروانية، تاريخ التصفح 6 ماي 2018م ، سا: 10:17، www.facebook.com .

² نعيمة محمد عبد الجواد، تحديد الخطاب الديني عند الفاضل بن عاشور، رسالة ماجستير، جامعة الزاوية ليبيا، 2013/2014م ، ص 23.

الفصل الثاني: جهود الإمام الفاضل بن عاشور في التفسير وعلوم القرآن

المبحث الأول: دراسة كتاب التفسير ورجاله

المبحث الثاني: جهوده في التفسير و علوم القرآن

الفصل الثاني: جهود الإمام محمد الفاضل بن عاشور في التفسير وعلوم القرآن

يتضمن هذا المبحث دراسة عن كتاب التفسير ورجاله، توثيق نسبة الكتاب لمؤلفه وسبب تأليفه وطريقة عرضه، مسلكه فيه، موارده، أهم اختياراته، أهم مميزاته والمآخذ عليه

المبحث الأول: دراسة كتاب التفسير ورجاله

المطلب الأول: توثيق نسبة الكتاب لمؤلفه و سبب التأليف

الفرع الأول: توثيق نسبة الكتاب للمؤلف

لقد نسب كتاب التفسير ورجاله إلى الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في أغلب تراجمه ومن أهم المصادر التي نسبت له الكتاب:

- خير الدين الزركلي في كتابه الأعلام حيث قال: "طُبِعَ من كتبه أعلام الفكر في تونس وأركان النهضة الأدبية بتونس والتفسير ورجاله"¹.
- رضا كحالة في كتابه معجم المؤلفين مصنف الكتب العربية حيث قال: "من كتبه أركان النهضة وأعلام الفكر الإسلامي والتفسير ورجاله"².
- محمد محفوظ في كتابه تراجم الأعلام التونسيين حيث قال: "مؤلفاته التفسير ورجاله تونس 1966، المحاضرات المغربية 1974"³.
- المستشار عبد الله العقيل في كتابه من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية حيث قال: "ومن أهم مؤلفاته فلسطين الوطن القومي للعرب، التفسير ورجاله"⁴.

الفرع الثاني: سبب التأليف

لم يؤلف الشيخ محمد الفاضل هذا الكتاب ابتداءً أو لسبب معين، وإنما أصل الكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها على طلبته في جامع الزيتونة الأعظم، ثم تم تعديلها لتكون صالحة للدرس الإذاعي العام، حيث كان يُبث الأربعاء من كل أسبوع وهذا ما ذكره الشيخ الحبيب بن خوجة في

¹ خير الدين الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ص 325، 326.

² عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 3، لا.ط؛ لا.م: مؤسسة الرسالة، د.ت، ص 314.

³ محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ص 314.

⁴ المستشار عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية، مرجع سابق، ص 950.

تقديمه للكتاب حيث يقول: "ثم أضاف شيخنا إلى ذلك اشتغاله بتدريس هذه المادة سنين طويلة بجامع الزيتونة الأعظم، فكان يراجع -لوفاء به- ما شاء الله من كتب التفسير الخطّية والمطبوعة، المجرّدة والمذيّلة بالحواشي والهوامش لصدور الشريعة الإسلامية، وأعلام اللغة والبيان. حتى إذا أقبل بعد ذلك في الكلية الزيتونية على تدريس المداخل، والاشتغال بالدراسات القرآنية، ألقى محاضرات كثيرة في نحو ثلاث سنين كان ملخّصها هذا الكتاب، بل هذه المحاضرات التي كانت - طوال نصف عام - أنس السمار، ومتعة سماع الذين يتسارعون إلى أجهزة الإذاعة مساء كل أربعاء من كل أسبوع، لينصتوا - في تلهّف وشوق - للشيخ الفاضل، ويستفيدوا من أدبه الجمّ وعلمه الواسع"¹.

المطلب الثاني: موضوع الكتاب ومسلكه فيه

الفرع الأول: موضوع الكتاب

الكتاب عبارة عن عرض لمراحل تطور التفسير القرآني مع توصيف لمناهج ألفه رين على اختلاف مدارسهم حيث يقول الباحث عبد الرحمن حللي: لقد أرّخ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه التفسير ورجاله مسيرة علم التفسير منذ عصر التدوين إلى عصره، حيث عرض إحدى عشرة مرحلة مركزية مرّ بها علم التفسير وتطوّر من خلالها، بدأ من عصر التدوين إلى عصره وأبرز في كل مرحلة العنوان الأبرز والأثر الذي تركه في سياق عصره ومن بعده، بالإضافة التي تجلّت فيه، مع لحظ صلة كل بالمرحلة الحضارية التي مرّ بها المفسّر والمنطقة الجغرافية التي عاش فيها، والنمط المعرفي السائد في تحديد المنهج التفسيري عنده"².

"وهو بذلك يرسم لدارس تاريخ التفسير خطّياً جلياً يكشف له عن جميع المراحل، منبّهاً في كل واحدة منها إلى البواعث والأسباب المقتضية للتطور، وإلى جملة المميزات والخصائص التي يختلف بها هذا التطور عن الذي يتقدمه أو يليه من مراحل التأليف في هذا الفن العظيم: فن التفسير"³.

¹ محمد الفاضل بن عاشور التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص7.

² عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مجلة الدراسات القرآنية، العدد: 11، 1433هـ، ص 549.

³ محمد الفاضل بن عاشور، مرجع سابق، ص6.

الفرع الثاني: مسلكه في الكتاب

تناول الإمام إحدى عشرة مرحلة مركزية تطوّر من خلالها فن التفسير وأهم المراحل التي اعتمدها في دراسة كتب التفاسير:

1- نبذة تعريفية حول العصر الذي عاش فيه صاحب التفسير، فيسرد الأوضاع السياسية والاجتماعية والعلمية والثقافية.

2يعرّف بالمفسّر، فيذكر اسمه، نسبه، مولده، حياته العلمية.

3يعرّف بالتفسير، يعرض طريقة المفسّر في كتابه، يذكر بعض المسائل الفقهية والحديثية والقراءات وغيرها مع التمثيل.

4- يذكر خلاصة تضم أهم ميزات كل تفسير.

5- يختتم كل مرحلة بخاتمة موجزة تفيد الانتقال إلى الموضوع الذي بعده.

معيار من اختارهم من المفسرين:

الظاهر من حجم الكتاب أن المؤلف لم يقصد به التوسّع أو الشمول بل أثر الإيجاز والاختصار حيث لم يتجاوز الكتاب (250 صفحة) ولتتقى من التفاسير ما يشكل نقطة تحوّل في تاريخ التفسير، لكنه لم يفصح عن معيار ما انتقاه من التفاسير لاسيما أن ثمة تفاسير لا تقل أهمية أحيانا لم يقف عندها، لذلك يمكن أن نستخلص بعض الاعتبارات التي اختار على أساسها:

• ركّز الفاضل فيما اختاره على المشهور من التفاسير ذات الأثر العلمي (كالطبري والزمخشري والرازي والبيضاوي) أو المغمور من التفاسير الذي لم يعط حقه ومكانته (كابن سلام، وابن عرفة)¹.

• "اختار الفاضل من التفاسير ما يشكل إضافة في المسار المركزي لعلم التفسير ويسجل إضافة تراكمية في حلقة مستقرة من التأليف فيه، ويمكن لحظ ذلك من خلال الربط بين كل حلقة والتي قبلها، وقد لاحظ في مسار التأليف وجود نسقين الأول يعتمد الطريقة الأعجمية والثاني

¹ عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مرجع سابق، ص 549

يعتمد الطريقة المغربية، لكن النسق الثاني لم يكن واضح السلسلة أو الانتشار كالطريقة الأخرى، رغم توفر مصادر يمكن إكمال النسق من خلالها¹.

وسنعرض مثالين حتى تتضح طريقة الإمام في تناول التفاسير الأول في التفسير بالمأثور: وهو تفسير الإمام الطبري والثاني التفسير بالرأي: وهو تفسير الإمام الرازي. أولاً: التفسير بالمأثور (تفسير الإمام الطبري)

" إذا اعتبرنا يحيى بن سلام مؤسس طريقة التفسير الأثري النظري، في القرن الثاني - وإنه كذلك - فإن محمد بن جرير الطبري هو ربيب تلك الطريقة وثمره ذلك الغراس.

كان التفسير عندما انتهى إلى الطبري، في أوائل القرن الثالث، نهراً مزبدا ذا ركام ورواسب، قد انصبَّ إلى بحر خضم عباب فاهة بجلائه وتشرَّب من عناصره وصفى إلهن زبده وتطهَّر لديه من ركامه ورواسبه. ذلك هو المضروب حقاً لما كان للإمام محمد بن جرير الطبري المولود (سنة 224هـ) والمتوفى سنة (310هـ) من الأثر في تطور فن التفسير في القرن الثالث فلقد كان رجلاً عجبياً: في جمعه نواحي متباعدة من فنون العلم، وبلوغه فيها جميعاً درجة متساوية من الإمامة وهو من الأئمة المجتهدين أصحاب المذاهب في الفقه، و من أئمة الحديث و من رجال التاريخ فكان جديراً بالتفسير".

● حيث كان يفتح تفسير الآية بقوله: (القول في تأويل قوله تعالى... كذا) قال الفاضل بن عاشور: والنزم كلمة التأويل في ترجمة كل فصل من فصوله²، مثاله سورة الفاتحة حيث قال الإمام الطبري: (القول في تأويل فاتحة الكتاب)³.

¹ عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مرجع سابق، ص 587.

² محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 40.

³ محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق: محمود شاكر، ط: 2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ج 1، ص 135.

- يسرد الآية ثم يقول: (يعني تعالى بذلك) قال الفاضل بن عاشور: عندما ينتصب للقول في تأويل الآية يسردها¹، مثاله ثم القول في تأويل قوله (خليفة) يعني بذلك أنه أبدلكم في الأرض منهم، فجعلكم خلفاء بعدهم².
- يوضح دلالة المفردات اللغوية ببيان المعنى الأصلي للمفردة قال الفاضل بن عاشور: يفسر ح عما يدور عليه المعنى من دلالة المفردات اللغوية على المعاني التي هي مستعملة فيها³، مثاله قول الإمام الطبري: القول في تأويل قوله (في طغيانهم) قال أبو جعفر: والطغيان (الفرعونان)، من قولك: طغى فلان يطغى طغيانا، إذا تجاوز في الأمر حدّه فبغى⁴.
- اهتمامه بالأسانيد: قال الفاضل بن عاشور: يورد الأسانيد مسلسلة عن شيوخه⁵، مثاله القول في تأويل قوله: (الوزن يومئذ الحق) قال أبو جعفر: حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: (الوزن يومئذ) القضاء⁶.
- اهتمامه بالقراءات: قال الفاضل بن عاشور: يجعل من تخريج النحو الراجح توجيها للقراءة بيانا لأولويتها⁷، مثاله القول في تأويل قوله (معايش) قال أبو جعفر: واختلفت لقاة في قراءتها، فقرأ ذلك عامة قراءة الأمصار (معايش) بغير همزة وقرأه عبد الرحمن الأعرج (معائش) بالهمزة⁸.

وقد اعتبر الفاضل بن عاشور تفسير الطبري من التفسير بالرأي وإن غلب عليه التفسير بالمأثور حيث يقول: "وإن الذين يعتبرون تفسير الطبري تفسيراً أثرياً، أو من صنف التفسير بالمأثور، إنما

¹ محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 41.

² محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ص 949.

³ محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 42.

⁴ محمد بن جرير الطبري، مرجع باسق، ص 308.

⁵ محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 42.

⁶ محمد بن جرير الطبري، مرجع باسق، ج 12، ص 309.

⁷ محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 43.

⁸ محمد بن جرير الطبري، مرجع باسق، ص 316.

يقتصرون على النظر إلى ظاهره بما فيه من كثرة الأحاديث والإسناد، ولا يتدبرون في طريقته وغاياته التي صرّح بها من إيراقلك الأسانيد المصنفة المرتبة المصنفة¹.

وهو بذلك يخالف أباه الطاهر بن عاشور حيث اعتبر تفسير الطبري من التفسير بالمأثور وقد ذكر ذلك في المقدمة الثالثة حيث قال: "وقد التزم الطبري في تفسيره أن يقتصر على ما هو مروي عن الصحابة والتابعين".

ثانياً: التفسير بالرأي (الإمام الرازي)

"امتاز القرن الخامس بتلاقي الطرفين المتباعدين: وهما الحديث والكلام، وفيه ظهر الإمام فخر الدين محمد ابن خطيب الرازي المولود سنة (543هـ) المتوفى سنة 606هـ (وهو عربي قرشي من سلالة أبي بكر الصديق نشأ في البلاد الأعجمية وعاش فيها وتنقل فيها من الري إلى (خرسان)² إلى (خيو)³ و(بخارى)⁴ وعامة بلاد ما وراء النهر ودخل البلاد العربية العراق والشام نشأ محلقاً في أفقها ففقهها بجناحين من اللغة العربية واللغة الفارسية قال ابن خلدون: "له اليد البيضاء في الوعظ باللسانين العربي والفارسي"⁵.

يرى الإمام فخر الدين الرازي أن الحكمة القرآنية أسلم من الطرائق الكلامية، ومن أجل ذلك اعتمد على طريقة مختارة متبعة لمنهج الغزالي وإمام الحرمين والباقلاني وأبي إسحاق الإسفراييني والإمام أبي حسن الأشعري، كون طريقة المعتزلة - في نظره - عطلت القرآن وحجبت عن الوصول إلى أسرارها لحرصهم على الجوانب البلاغية والنحوية.

ورغم الاستغراب الذي لاقتة دعواه، وانقسام الناس من حوله بين مؤيد ومعارض فقد انتصب الإمام الرازي يبرهن على نظريته ويستدل لها حتى ادعى أن سورة الفاتحة يمكن أن يسببط من فرائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة حيث قال في تفسيره: "لعلم أنه مرّ على لساني في بعض

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 43-42.

² خراسان بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط: لا، دار صادر، بيروت 1977م، ج 2، ص 350.

³ خيو: بفتح أوله وسكون ثانيه وراء جبالان خيرة الأصفر وخيرة الممدرة. ينظر: ياقوت الحموي، مرجع سابق، ص 411.

⁴ بخارى: بالضم وهي من أعظم المدن ما وراء النهر وأجلها كانت قاعدة ملك السمانية بينها وبين جيحون يومان، المرجع نفسه، ص 353.

⁵ ابن خلدون، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، ج 4، ص 249.

الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن أن يستنبط من فرائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة¹ فأقدم على تصنيف كتاب في تفسير سورة الفاتحة، استهله بمقدمات ذات خطط منهجية تنتهي إلى إثبات أنه لا عجب في أن تستنبط تلك المسائل الكثيرة من الألفاظ القليلة؛ فأخذ مثلاً قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162] حيث قال: "ذلك أنه ثبت بالدليل أنه حصل خارج العالم خلا لا نهاية له وثبت بالدليل أنه تعالى قادر على جميع الممكنات، فهو تعالى قادر على أن يخلق ألف ألف عالم خارج العالم، بحيث يكون كل واحد من تلك العوالم أعظم وأجسم من هذا العالم"². وبعد الانتهاء من هذا الكتاب المخصوص بسورة الفاتحة شرع بتأليف كتاب آخر في تفسير سورة البقرة على الطريقة نفسها ثم انتقل من سورة إلى سورة على ترتيب المصحف الشريف جاعلاً كل سورة تفسيراً مستقلاً.

ثم يخلص الفاضل بن عاشور إلى نتيجة فيقول: "وببيان هذا المنهج، الذي سار عليه الإمام الرازي يتضح أن إعجاز القرآن كما كان غير محصور في وجه الإعجاز البلاغي، وأنه يتجلى في أوجه أخرى غيره: منها الإعجاز العلمي، والإعجاز الغيبي، على ملصّح به القاضي عياض في الشفاء، وعلى ما أشار إليه من قبل القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، وأنه إذا كان تفسير الزمخشري قد تكفل ببيان وجه الإعجاز البلاغي، فإن معظم ما يرجع إلى الوجهين الآخرين من الإعجاز لم يتكفل به إلا تفسير الرازي، وذلك ما نعم به حجة إعجاز القرآن جميع أهل العقول والمعارف، من العرب وغيرهم، وينادي به برهان إعجاز القرآن في عموم اللغات"³.

¹ فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ط: 1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1981م، ج 1، ص 8.

² المرجع نفسه

³ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 91.

المطلب الثالث: طريقة عرض الكتاب وأهم اختياراته فيه

الفرع الأول: طريقته في عرض الكتاب

استهل الإمام كتابه بمقدمة مهمة ذكر فيها نشأة التفسير وبداية التدوين فيه ثم تطرّق إلى التفسير (بالمأثور)¹، حيث عالج هذه المسألة بإحكام شديد من عدة نواحي حيث ضبط مصطلح التفسير بالمأثور وحدد طبيعة الحاجة إليه، كما بين ضرورة إخضاع التفسير بالمأثور لقواعد نقد الإخبار وهو في حديثه عن نشأة التفسير ينطلق: "من انعقاد الإجماع على أن كل لفظ في القرآن له معناه الانفرادي، وأن كل كلام له معناه التركيبي وأنه لم يرد في القرآن ما لا معنى له، ولم ترد فيه نصوص لها معاني لم يفهم إلا بالتوقيف عليها من طرف شخص معين؛ بل إن كل ما فيه يدل على معان ظاهرة دلالة عليها بحسب الوضع اللغوي العربي، وقوانين التركيب العربي".

وبهذا رد علي (الحشوية)²، حيث يقول: "حتى الطائفة الإسلامية التي شذّت في أواخر القرن الأول حيث قالت إن في القرآن لم نفهمه وهي الطائفة التي عرفت باسم الحشوية، إنما أرادت ألفاظا لها معانيها، لكنها لم تفهم ومع ذلك فإن الإجماع دحض تلك المقالة، وتولى علماء الكلام وعلماء الأصول بيان ما بُنيَ عليه من إخلال وكذلك من نزعو إلى (حجة الباطنية)³ فعطّلوا دلالة التراكيب، وأنكروا أن تكون المعاني المستفادة منها بطريق الوضع اللغوي". ثم تكلم عن المدارس القليلة عن التفسير بالمأثور ومنها إلى المدارس اللغوية العلمية ثم الفلسفية الحكيمة ثم الفقهية الشرعية وأخير الاجتماعية الإصلاحية.⁴

ولقد افتتح الشيخ كتابه بالحديث عن مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما، ثم تحدث عن تفسير يحيى ابن سلاّم التونسي ليتحوّل منه إلى الطبري حيث شرح طريقة كل منهما في التفسير ونبّه على ما تميّز به كل واحد منهما على الآخر ثم ذكر المناهج المعتمدة لدى الإخباريين في التفسير الذين

¹ التفسير بالمأثور: هو ما جاء في القرآن والسنة أو كلام الصحابة بيانا لمراد الله تعالى في كتابه، ينظر: عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق أحمد بن علي، ط: لا، دار الحديث، القاهرة، 1422هـ. 2001م، ج2، ص14.

² الحشوية: هي طائفة لا يرون البحث في آيات الصفات التي يتعدى لِحْواها على ظاهرها. ينظر: عبد المنعم حنفي، موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، ط: 1، دار الرشاد، مصر، 1993م، ص187.

³ الباطنية: أخطر الفرق في تاريخ الإسلام وأخبثها وليست الباطنية من الفرق الإسلامية بل هي خارجة عن الملة باتفاق المسلمين. ينظر: صفر الحوالي، أصول الفرق والأديان والمذاهب الفكرية، ط: لا، لا: دار، ص70.

⁴ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص8.

نقدوا الأحاديث وميّزوا بينها ووضعوا بذلك تفاسيرهم كالبخاري ثم انتقل للحديث عن أصحاب المدرسة العقلية كالمعتزلة بثمن¹ طريقة التفسير عن علماء البلاغة وعلماء الإعجاز من خلال تفسير عبد القاهر الجرجاني والزمخشري وابن عطية. ثم أبدى تقديره وإعجابه وإجلاله لإمام المدرسة الحكيمة فخر الدين الرازي ثم ذكر تفسير البيضاوي وما كتب عليه من حواشي وتعليقات ثم انتقل إلى آمال ابن عرفة ودروسه التي وصلت إلينا عن طريق تلاميذه: (الشيخ محمد الآبي)¹ التونسي والشيخ (محمد البسيلي)² الجزائري والشيخ أبي القاسم السيلاوي المغربي. ثم تكلم عن شيخ الإسلام أبو السعود والآلوسي وبين عناية رجال الثقافة الإسلامية بآثارهما، ثم ختم كتابه بعصر النهضة الإسلامية حيث تحدث عن ركني الإصلاح في العالم الإسلام السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده دون أن ينسى أن يتعرّض لتفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا.

تعرّض ض المحاضرات لكل هذه المراحل والأطوار، مركزاً كل الخصائص والمميزات والاتجاهات والتصرفات واللقوات العلمية والفكرية على شخصية المفسر³، وما توحى به إليه ظروفه التاريخية والاجتماعية والسياسية⁴.

يدل على ذلك ما تعرّض به لكل واحد من المفسرين الذين تحدّث عن كتبهم من بيان مدارسهم، وطرائق تحريجهم، وذكر للتأثيرات الإقليمية والجنسية والاجتماعية والسياسية فيما حبروه من شروح، ودجوه من تأويلات لنصوص القرآن الكريم³.

الفرع الثاني: أهم اختياراته في الكتاب

يعتبر الفاضل بن عاشور أن النص القرآني كلام مكثف بذاته، أي أن معنى القرآن واضح لا يحتاج إلى تفسير إلا باعتبار خارجي وليس ذاتياً، وذلك لحاجة المفسر وليس لحاجة النص، ولعله لهذا السبب لم يذكر الحاجة اللغوية إذ هي مشكلة القارئ وضعفه في اللغة، وليست حاجة متصلة بالنص⁴

¹ هو محمد بن خليفة بن عمر الآبي نسبة إلى أبي من قرى تونس المشتاتي المالكي عالم بالحديث ولد سنة 1424م ألف كتاب إكمال المعلم لفائد كتاب مسلم توفي 1424م. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ص115.

² هو احمد ابن محمد ابن احمد البسيلي مفسر من أهل تونس من تلاميذ ابن عرفة حضر دروسه وجمع كتاباً مما كان يمليه في التفسير مات 1427م. ينظر: خير الدين الزركلي، المرجع نفسه، ص227.

³ المرجع نفسه، ص10.

⁴ عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، ص550

ودليله على ذلك قلة الحاجة إلى التفسير في العهد الأول، إذ محور الحاجة لم يكن موجوداً فمعرفة ملابسات النزول ما تزال قائمة، وكذلك مبهمات النص ومجملاته.

وقد ضبط الفاضل بن عاشور (التفسير بالمأثور) بأنه مادة نقلية إخبارية تتكون من عنصرين:

" **العنصر الأول:** العلوم الأثرية النقلية المتصلة بالسيرة، وضبط تواريخ النزول وتفاصيل الأحوال العامة والخاصة.

العنصر الثاني: تعيين المجملات والمبهمات في القرآن، والتي ترجع إلى الدلالات التبعية للتركيب القرآنية، أو احتمال التركيب لا أكثر من معنى وهي لا تعم جميع أجزاء القرآن".

كما استخرج ملاحظة نقدية مهمة حول ما أضيف إلى التفسير بالمأثور لاعتبار نقله عن الصحابة، كالمأثور عن ابن عباس رضي الله عنه من الفهم اللغوي المعتمد على الشعر الجاهلي ومصادر أهل الكتاب، فكلاهما لا يعتبران عنده من التفسير بالمأثور. ويعلل ذلك بقوله: "ومن الظاهر أن هذين العنصرين، وإن وجدا في بعض كلام ابن عباس، لا يصح اعتبارهما من التفسير بالمأثور، لأن مرجعهما إلى المعرفة العامة".

وقد ميز بين نقل الصحابي مالا يمكن أن يكون محلاً للرأي، وحصر ذلك في عنصرين فقط هما (أسباب النزول والمبهمات) وبين توظيف الصحابي للغة والمعرفة العامة في التفسير، والتي اعتبرها محل اجتهداد، ولعله لهذا الاعتبار لم يضيف تفسير القرآن بالقرآن على أنه جزء من التفسير بالمأثور.

- جعل الإمام محمد الفاضل بن عاشور أن أول من ألف في التفسير هو رضي الله عنه رَجَ حيث يقول: "فلما استهل القرن الثاني، ودخلت العلوم الإسلامية في دور التدوين، انبرى أحد الأئمة الثقات من رجال الحديث: وهو عبد الملك بن جريج المتوفى سنة (149هـ) إلى جمع تلك الأخبار في كتاب، فكان أول من ألف في التفسير"¹، فهو يتابع والده الشيخ الطاهر بن عاشور في اعتبار ابن جريج أول من ألف في التفسير حيث يقول في المقدمة الأولى: "وأما تصنيفه فأول من صنف فيه عبد

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 28.

الملك ابن جريج المكي، المولود سنة 80 هـ والمتوفى سنة 149 هـ صنف كتابه في تفسير آيات كثيرة وجمع فيه آثاراً وغيرها¹.

● "عدَّ الإمام الفاضل بن عاشور تفسير (يحيى بن سلام)² أقدم تفسير على الإطلاق حيث قال:³
وإنما نعني بهذا تفسيراً جليلاً من صميم آثار القرن الثاني، وهو أقدم التفاسير الموجودة على الإطلاق...
وهو مؤسس طريقة التفسير النقدي"⁴.

● ويكاد يكون الإمام الفاضل بن عاشور الوحيد الذي اعتبر تفسير يحيى الحلقة المجهولة بين عصر الطبري وبدايات عصر التدوين في علم التفسير إذ يذهب إلى كل من يتناول هذه الطريقة من الكتاب المحدثين يبادرون إلى ضرب المثل بتفسير محمد بن جرير الطبري "فيقطعون بذلك اتصال سلسلة التطور في الأوضاع التفسيرية بين القرن الأول والقرن الثالث بإضافة الحلقة من تلك السلسلة التي تمثل منهجاً في القرن الثاني، لأن تفسير ابن جرير الطبري ألف في أواخر القرن الثالث، وصاحبه توفي في أوائل القرن الرابع، والحال أن الحلقة التي يتم بها اتصال السلسلة، وضاعت عن الكاتبين المحدثين في تاريخ التفسير من المستشرقين وغير المستشرقين، هي حلقة إفريقية تونسية، وبالوقوف عليها يتضح كيف تطور فهم التفسير عما كان عليه في عهد ابن جريج إلى ما أصبح عليه في تفسير الطبري، ويتضح لمن كان الطبري مديناً له بذلك المنهج الأثري النظري الذي درج عليه في تفسيره العظيم"⁵.

● ولقد صحح الإمام الفاضل بن عاشور النظر إلى تفسير الطبري، وأعاد الاعتبار له ولمكانته بما سجله من ملاحظات على تفسيره، حتى اعتبره تحولاً في منهج التفسير ذا أثر بعيد، حيث يقول:⁶ "فلذلك

¹ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس 1984م، ج 1، ص 14.

² يحيى بن سلام: ابن أبي ثعلبة التميمي، ولاء من تميم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني، أبو زكرياء المفسر، المحدث الفقيه، ولد بالكوفة سنة 742م، روى عنه مالك من مؤلفاته التصانيف، توفي سنة 815م، محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج 3، ص 53.

³ عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مرجع سابق ص 552.

⁴ محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 35.

⁵ المرجع نفسه، ص 35.

⁶ ينظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مرجع سابق، ص 554.

يصح أن نعتبره تحولاً في منهج التفسير ذا أثر بعيد، قطع به التفسير ما كان يربطه إلى علم الحديث من تبعية ملتزمة¹.

● ولقد وجه الإمام الفاضل بن عاشور انتقاداً لمذنبين يعتبرون تفسير الطبري تفسيراً أثرياً أو من صنف التفسير بالمأثور، حيث قال²: إنما يقتصرون على النظر إلى ظاهره بما فيه من كثرة الحديث والإسناد، ولا يتدبرون في طريقته وغاياته التي يصرح بها، من إيراد تلك الأسانيد المصنفة المرتبة الممحصنة، والعجب كل العجب من (ابن خلدون)³ حيث راجت عليه هذه الشبهة، فعدّه من مدوّني الآثار المنقولة، مثل (الواقدي)⁴ والثعالبي، وقد يرجع السبب في ذلك إلى أن تفسير الطبري كان منذ قرون مفقوداً أو في حكم المفقودين⁵.

● كما أظهر الإمام الفاضل بن عاشور دور البخاري في علم التفسير، هو إضافة مهمة والتفات لم يلحظها كثير من مؤرخي علم التفسير⁶؛ حيث عرف البخاري محدثاً ولم تظهر مكانته في التفسير والتي والتي تتجاوز نقده المأثور التفسيري سنداً إلى تفعيل عناصر التفسير الأخرى، فقد أودع البخاري في كتابه (الجامع) مباحث ليست من موضوع علم الحديث، وإنما هي لصيقة بالتفسير وعلوم القرآن، كغريب الحديث والمباحث اللغوية والصرفية ذات الصلة وغير ذلك مما وظفه البخاري في تفسير الآيات، هذا فضلاً عن كتابه المستقل (التفسير الكبير) والذي ما يزال في عالم المخطوطات المجهولة⁷.

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص44.

² ينظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مرجع سابق ص555.

³ ابن خلدون، محمد ابن محمد ابن عبد الرحمن ابو زيد الحضرمي المعروف ابن خلدون، ولد سنة 732هـ، من شيوخه أبو عبد الله الجبائي، من مصنفاته، التاريخ الكبير، توفي سنة 808هـ. ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص555.

⁴ الواقدي: هو محمد ابن عمر ابن واقد الأسلمي مولاهم الواقدي المدني القاضي صاحب التصانيف والمغازي، أحد أوعية العلم على ضعفه المتفق عليه، ولد بعد 120هـ، سمع من صغار التابعين، حدث عن ابن جريج ومات بنة 207، ينظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط (ط: لا، مؤسسة الرسالة) ج2، ص454.

⁵ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص44.

⁶ ينظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مرجع سابق، ص557.

⁷ أنظر: سيد أحمد الإمام بن خضري، منهج الإمام البخاري في التفسير من خلال كتابه (الصحيح)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ج1، ص28.

● كما انتقد الإمام الفاضل بن عاشور المعتزلة بقوله¹: " ولكن نزعة من العصبية الغالية قد أوغلت بهم في مسالك التعسف، كلما كانت المحامل الواضحة التي يستدعيها السياق ويقتضيها التركيب، مخالفة لمذاهبهم الكلامية في المعاني الاعتقادية، ونزعة من الغرور الذميم أركبتهم مركب إدعاء أن آلة التأويل وقف عليهم، لا يحسن غيرهم أن يتعاطاها بما اشتهر من براعة الشريف المرتضى التي شهدت بها مجالسه المشهورة أو أماليه".²

● ويؤكد الإمام الفاضل بن عاشور بدقة أن ابن عطية لم يستفد من الزمخشري أو يطلع على عمله لكونهما متساويين فزيادة على معاصرتهم لبعضهما اتفقا أيضا في المنهج واستمداد ثقافتهما العامة من اللغة والأدب " ولكنهما وراء هذا الاتفاق يختلفان من أوجه عدة، ينبغي الالتفات إليها لإحكام المقارنة بين التفسيرين العظيمين. فكما اختلف في أن تفسير ابن عطية من آثار الشباب وتفسير الزمخشري من آثار الشيخوخة، فإنهما اختلفا اختلافا واضحا هو أقوى أثرا في العمل العلمي، وهو اختلاف يرجع إلى ثلاث جهات:

أولها: أن ابن عطية مغربي والزمخشري مشرقي.

وثانيها: من حيث إن ابن عطية سني والزمخشري معتزلي

وثالثها: من حيث ابن عطية مالكي والزمخشري حنفي.

ولكل من هذه الجهات أثرها في ميزة من الميزات التي اختلف بها كل من التفسيرين عن الآخر. وعليه فالإمام الفاضل بن عاشور يذهب إلى أنه رغم اعتماد التفسيرين على أصول مشتركة واغترافهما من منابع متحدة لا يفترض أن أحد هذين المفسرين اعتمد على الآخر واغترف منه الأمر الذي يسمح بضم أحد التفسيرين إلى الآخر على معنى المقارنة والموازنة بين أثرين مستقلين متحدين في الموضوع والمنهج والعصر ومن هنا نشأ ذلك الحكم المشهور المبني على دقيق المقارنة بين التفسيرين

¹ ينظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مرجع سابق، ص 558

² ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 53.

وهو ما شاع عند العلماء منذ قرون وأورده صاحب كشف الظنون مورد القول المأثور والأمر والمشهور، "من أن ابن عطية أجمع وأخلص، وأن الزمخشري أخص وأغوص".¹

● وقد صحح الإمام محمد الفاضل بن عاشور نسبة التفسير إلى الإمام الرازي وإكماله إليه فقال²: "والذي يبدو في نظرنا فيصلاً بين ذلك كله أن الرازي لما انتصب في آخر حياته لتصنيف التفسير تمكن من إخراج شيء منه في تحريره النهائي وبقي شيء في الآمالي والمسودات بيد بعض تلامذته، فأقبل على تصنيفه وتحريره، وألحق في ذلك الفرع بالأصل فالكتاب بروحه هو الرازي كله وبتحريره هو من وضعه في الأول ووضع تلميذه الخوي في الآخر؛ على أن تحقيق محل الفصل بين التحريرين أمر لا دليل عليه ولا سبيل إلى تحقيقه بالقطع"³.

● وانتقد الإمام الفاضل بن عاشور كلمة صدرت في تفسير الإمام الرازي وراجت في مجالس العلماء قديماً وحديثاً من أن (تفسير الرازي قد اشتمل على كل علم إلا التفسير ويذهب إلى أنها كلمة صدرت عن غير روية ولا تحقيق، "انبت على مقارنة سطحية، بل وصف طريقته بأنها طريقة لا غنى لطالب التفسير على وجهه الأكمل"⁴.

● كما اعتبر الإمام بن عاشور أن الطبري مجتهد ومؤرخاً ومفسراً "لملم بعدة معارف وعلوم، وانعكس هذا البعد الموسوعي على تفسيره، ولقد أدرك الطبري أن مصطلح (تفسير) لا يمكن أن يعكس حقيقة العلاقة بين النص القرآني وقارئه فقال⁵: "فكان التفسير على يده قد اصطبغ صبغة جديدة بحق، لعلها هي التي سمحت له أن يختار؛ لدلالة على صنيعة، كلمة ما كان يختارها متعاطوا التفسير من قبله، وهي كلمة (التأويل). فسمى تفسيره باسم (جامع البيان عن تأويل القرآن)، والتزم كلمة التأويل في ترجمة كل فصل من فصوله، من المقدمات الواسعة المبسوطة، إلى كلامه في تأويل الاستعاذة ثم تأويل البسملة."⁶

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 73/61.

² ينظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مرجع سابق، ص 563.

³ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 100.

⁴ المرجع نفسه، ص 91.

⁵ من قضايا تأويل النص القرآني عند الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، على بن مبارك مؤسسة مؤمنون بلا حدود، قسم الدراسات الدينية، ص 04.

⁶ ينظر: الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 40.

المطلب الرابع: أهم مميزات الكتاب وأثره فيمن جاء بعده

الفرع الأول: مميزات الكتاب

- ذو أسلوب سلس عذب.
- يكاد ينفرد الكتاب بكونه أول دراسة مستقلة في مناهج المفسرين والتأريخ لعلم التفسير.
- يتميز الكتاب بالربط العميق بين المنهج التفسيري الخاص والنسق العام للمعرفة في كل عصر.
- من مزايا الكتاب أنه أبرز مكانة المدرسة المغربية في التفسير من خلال تفاسير: (ابن سلام، ابن عرفة، ابن عطية).
- يتسم الكتاب بالشمولية حيث جمع بين مما تميز به الكتاب من كونه ليس كتاب تأريخ عام فقط، أو تراجم رجال علم التفسير، وإنما يحمل بُعداً حضارياً يجلي مسار المعرفة في الحضارة الإسلامية.
- أنه انتقى من التفاسير ما يشكل تحولا مركزيا في تطور علم التفسير، ويسجل إضافة تراكمية في تاريخه.
- يعتبر الكتاب مرجع هام ومختصر لمن أراد معرفة أهم المحطات التاريخية لعلم التفسير ونشأته¹.

الفرع الثاني: أثره فيمن جاء بعده

لقد استفاد من هذا الكتاب من جاء بعده ومنهم الدكتور عبد الفتاح الخالدي في كتابه : تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، حيث نقل عنه فقال : قال: "محمد الفاضل بن عاشور في كتابه التفسير ورجالفعني بهذا تفسيراً جليلاً من صميم آثار القرن الثاني وهو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق، ألف بالقيروان ورؤيوا فيها، وبقيت نسخته الوحيدة بين تونس والقيروان"².

كما أخذ عنه الطالب يوسف أحمد علي في رسالته لنيل درجة الدكتوراه حيث نقل عنه قوله: "ومن العلماء الذين تحدثوا بإسهاب عن البيضاوي وتفسيره وبيان منزلته من بين كتب التفسير بالرأي محمد الفاضل بن عاشور الذي بين مصادر البيضاوي ومنهجه في كتابه التفسير ورجاله فقال: "وكان المنهج المتبع في تصنيف البيضاوي والأسلوب المحتذى في تحريره هما المنهج والأسلوب اللذين جرى

¹ ينظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 541، 542، 585، 584، 588.

² عبد الفتاح الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، ط:3، دار القلم، دمشق، 2007م - 1429هـ، ص 303.

عليهما مصطلح التأليف العلمية في عامة الفنون من أول القرن السابع من حيث الاختصار ودقة التعبير والتزام المصطلح العلمي والإشارة إلى ما يتفرع عن التعبير عن معاني يكتفي بحضورها في الذهن عن ذكرها، ثم تأخذ مباني لما يأتي به التعبير بعدها...¹.

كما رجعت إليه الطالبة رشا شفيق سليمان في رسالتها حيث قالت: "وتضاربت الأقوال هل أتم الرازي التفسير كله أم لا؟ وفيما يأتي أقوال العلماء في ذلك: قال الفاضل ابن عاشور: « إن الإمام الرازي لما انتصب في آخر حياته لتصنيف التفسير تمكن من إخراج شيء منه في تحريره النهائي، وبقي شيء من الأمالي والمسودات بيد بعض تلاميذه فأقبل على تصنيفه وتحريره، وألحق في ذلك الفرع بالأصل، فالكتاب بروحه للرازي»²

المطلب الخامس: أهم مصادره في الكتاب وأبرز المآخذ عليه

الفرع الأول: أهم مصادره في الكتاب

"لقد اعتمد الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه على مجموعة من المصادر والمخطوطات بحكم طريقة التأليف في عصره نجده قليلا ما يحيل إلى الكتب التي رجع إليها أو شيوخه الذين أخذ عنهم، ومن أهمها"³:

أولا: كتب التفسير المطبوعة

- جامع البيان عن تفسير آي القرآن ، بن جرير الطبري.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية.
- تفسير الزمخشري.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا.
- تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، الآلوسي .

¹ يوسف أحمد علي، البيضاوي ومنهجه في التفسير، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أم القرى، ص234.

² رشا طارق شفيق سليمان، الروايات الواردة في سورة الفاتحة من تفسير الرازي، أطروحة مقدمة للحصول على درجة الماجستير في أصول الدين، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2016م، ص16.

³ ينظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مرجع سابق، ص 586.

- تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي.
- تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود.

ثانياً: كتب التفسير المخطوطة

- مخطوطات تفسير بن سلام.
- مخطوطات تفسير بن عرفة¹.

ثالثاً: كتب أخرى

- كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين بن خلكان².
- كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة³.
- كتاب المقدمة، ابن خلدون⁴.

الفرع الثاني: محتوى الكتاب

الكتاب عبارة عن مذكرات وملخصات دقيقة مضبوطة لما يلقى من محاضرات في تاريخ التفسير، والدراسات القرآنية⁵، عدد صفحاته 242 صفحة لذا كان محتوى الكتاب كالآتي:

- نشأة التفسير.
- التفسير بالمأثور.
- يحيى بن سلام.
- الطبري.
- من البخاري والمعتزلة.

¹ ينظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مرجع سابق، ص 587.

² ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 82.

³ المرجع نفسه، ص 51.

⁴ المرجع نفسه، ص 55.

⁵ المرجع نفسه، ص 11.

- من عبد القاهر إلى الزمخشري.
- الكشف.
- بين الزمخشري وابن عطية.
- الإمام الرازي.
- تصحيح نسبة التفسير إلى الإمام الرازي.
- تفسير البيضاوي.
- قيمة تفسير البيضاوي.
- تفسير ابن عرفة.
- تفسير أبي السعود.
- ظهور الشهاب الألوسي.
- مقام الألوسي في العلم والطريقة.
- الألوسي، وتأليفه التفسير.
- تفسير روح المعاني، للألوسي.
- نهضة الإسلام.
- الإصلاح الديني.
- جمال الدين الأفغاني.
- الشيخ محمد عبده.
- تفسير المنار.

الفرع الثالث: المآخذ عليه

أيّا كانت جهود البشر فهي عرضة للقصور، ومن جملة ما استدرك على الإمام: أنه — رحمه الله — لم يتعرض في كتابه إلى دراسة مجموعة من التفاسير الهامة على اختلاف مناهجها التي اشتهرت أو كان لها أثر بارز في تاريخ هذا العلم الشريف (علم التفسير) مثل:

- تفسير البغوي (معالم التنزيل) .

- تفسير بن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير).
 - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن وما تضمنه من السنة وآي الفرقان).
 - تفسير بن كثير (تفسير القرآن الكريم).
 - تفسير الجلالين (المحلي والسيوطي)¹.
- إلى غير ذلك من التفاسير سواء أكانت تفاسير مسندة و تعنى بجمع من أسند من التفاسير مثل: تفسير بن أبي حاتم، أو المنتور في التفسير بالمأثور السيوطي، أو كانت تفاسير تعنى بآيات الأحكام مثل: أحكام القرآن لابن العربي والجصاص، أو التفاسير المتأخرة مثل: تفسير الشوكاني المسمى (فتح القدير) أو تفسير القاسمي (المسمى محاسن التأويل)، وغير ذلك من تفاسير للنسفي والخازن والفيروز آبادي والثعلبي والسمعاني والواحدي وله أكثر من تفسير - وغيرهم.
- أغفل الإمام بن عاشور التفاسير غير الشاملة والمختصة بجوانب من علم التفسير كالتفسير الفقهي، والتفسير اللغوي وغيرها من الفروع.
 - أغفل الإمام أيضاً كتب الفرق الإسلامية ولم يذكرها (سوى الكشف) رغم إشارته إلى أثرها في دفع نسق التفسير السني الأشعري.
 - كما أغفل الإمام القرطبي (ت 671هـ) وكتابه الجامع لأحكام القرآن وكتاب البحر المحيط لابن حيان (ت 745هـ) وهما أيضاً من المحطات المهمة في التفسير، وكلاهما ينتمي إلى النسق المغربي الذي حرص على إبرازه، والذي بدا مبتوراً² في كتابه.
- وورد في كلام الإمام - رحمه الله - ما نصه:
- " فإن من الأصول التي قام عليها مذهب الاعتزال وفرقت بينه وبين المذهب السني السلفي، أصل المعتزلة في تأويل متشابه القرآن الذي كان يمسك عن تأويله مذهب أهل السنة، وذلك لا جرم .. ففتح للمعتزلة مسلكاً في تغليب أوجه دلالة القرآن على ما يحتملونه له من المعاني غير مفتوح

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، تقديم محمد رجب البيومي، ملتنقى أهل التفسير، ص 1.

² ينظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة علم التفسير من منظور الشيخ الفاضل بن عاشور في كتابه التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 588.

لغيرهم ممن لا يؤولون ممسكين ومفوضين" والمقصود بالمتشابه هنا هو صفات الله تبارك وتعالى حيث أن تأويلها من قبل المعتزلة هو الذي أثار عليهم أهل السنة¹.

ومن هذا الكلام نرى أن الإمام وصف أهل السنة بأنهم مفوضون، وهذا الوصف بهذا الإطلاق لا يصح، لأن أهل السنة يفوضون الكيف ولا يفوضون المعنى لعلمهم به.

- أن الإمام - رحمه الله - يذكر لفظ أهل السنة أو ما شابهه، وما يريد به إلا الأشاعرة في مقابلة المعتزلة أو الروافض، أما أن يكون مطلقاً فلا يصح، ولذلك تجد الشيخ يجمع بين السنة والكلام! أو بين أهل السنة والمتكلمين! جمعاً يجعلهما في سلك واحد، والأمثلة عديدة.
- يحذر من كلام الإمام في الفلسفة، والتي سمّاها أو سمّيت من قبله: الحكمة! وهذا مثلاً على ذلك حيث قال: الإمام - رحمه الله - " فلم ينبج فجر القرن السادس إلا وللثقافة الإسلامية هيكل واضح المعالم راسخ القواعد، تتراص فيه المعارف الحكمية، والمعارف الدينية²، وتشد فيه الفلسفة الشرعية على أنها خادمة لها، كما هو مذهب الأشعري، لا على أنها مسيطرة عليها كما كان مذهب المعتزلة، وأعان على ذلك جودة فهم الحكمة وحسن تنقيتها منذ تدفقت ينابيعها الصافية في كتب أبي علي بن سينا التي كان إشعاعها في مطلع فجر القرن الخامس³.

- أقدم من ألف في التفسير، وأقدم ما وصل إلينا من التفاسير:

إن الفاضل يتابع والده الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في التأريخ لبدايات عصر التدوين في علم التفسير، فيعتبر أن أول شخصية أدخلت التفسير ميدان التدوين هو عبد الملك بن جريج 149هـ، ويعتبر الفاضل أن تفسير بن سلام 200هـ أقدم التفاسير الموجودة على الإطلاق، لكن دراسات الباحثين أكدت خلاف هذين الحكمين، اللذين يبدو أنهما صدرا في ضوء معطيات عصر ابن عاشور، فقد أثبتت الدراسات والوثائق خلاف ذلك.

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 53.

² المرجع نفسه، ص 81.

³ محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، تقديم رجب بيوني، مرجع سابق، ص 2.

فقد حقق تفسير مقاتل بن سليمان 150هـ وطبع وأصبح متداولاً، فأصبح أقدم ما وصل إلينا، وهو أقدم من تفسير يحيى بن سلام، وبالتالي فقول الفاضل عن تفسير ابن سلام بأنه أقدم التفاسير الموجودة على الإطلاق فيه شيء من التوسع، ولعل ذلك الحكم في ضوء ما اطلع عليه من الفهارس والمخطوطات.

أما أن جريج هو أول من دون في علم التفسير، وهو معاصر لمقاتل ولادة ووفاة، فقد تعقب هذه الفرضية بعض الباحثين، ولاحظ أن ابن جريج نشأ بالحجاز، ويقال: أنه أول من صنف الكتب بالحجاز، أما مقاتل فنشأ بخراسان، كما لاحظ أن ابن جريج لم يطلب العلم إلا في الكهولة، وأما مقاتل فقد دون تفسيره في شرح الشباب، وبالتالي يرجح أن تفسير مقاتل هو أسبق بالتدوين، ويقارن بينهما من ناحية أخرى أن عمل ابن جريج هو الجمع للأخبار فقط، بينما يتميز عمل مقاتل بالتأليف الفني والتوفيق بين الآيات وتمحيص الأقوال، فكل من سبق مقاتلاً كانوا رواة للتفسير، وحتى ما دون منها يغلب عليه النقل والأثر، أما تفسير مقاتل فهو أول تفسير كامل لآيات القرآن، كما أنه أول تفسير فني يشرح كل آية في تفسيره ويوضحها.

فلعل ابن عاشور (الطاهر والفاضل) اعتمدا في النسبة لابن جريج على ما شاع عنه في التاريخ أنه أول من صنف في الحجاز، وأما دعوى أن تفسير ابن سلام أقدم ما وصل فذلك مقيد بما وصل إليه علمه في عصره¹.

ولكن يسوغ للإمام في عدم إيراده لما ذكر من تفاسير وما لم يذكر بأمور:
أولاً: أن هناك من التفاسير ما لم يكن قد طبع حتى بعد وفاة الإمام - رحمه الله - أو لعله طبع بالمشرق في حياته ولم تقع يده عليه أو طبع بعد أن انتهى الإمام من كتابه.

ثانياً: لعل الإمام رأى أن ذكر بعض التفاسير يغني عن بعض، وهذا قوي جداً، حيث أن الناظر في كتابه يلاحظ أنه استوعب أو كاد المناهج المختلفة في التفسير، فالظن أن الإمام رأى أنه باقتصاره على أن تلك الثلاثة من المفسرين سيحيط بمختلف المناهج التفسيرية، فلا داعي لذكر غيره، كما يلاحظ أن أصحاب التفاسير المختارة من أزمنة مختلفة، والواضح أن الإمام أراد أن يمر على التفسير

¹ ينظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "التفسير ورجاله"، مرجع سابق، ص 589.

عبر عصور الإسلام فاختار لكل عصر مفسراً واحداً يمثل - في رأي الإمام - ، وبالتالي أعرض عن ذكر كثير من المفسرين.

ثالثاً: أن الكتاب جاء موجزاً، فلو تعرض الإمام المذكور ما سبق من التفاسير لضخّم حجم الكتاب والظن أن الإمام كان يقصد إلى الإيجاز.

رابعاً: لعله كان للإمام منهج وخطّة في اختيار التفاسير محل البحث مما جعله يسقط بعض التفاسير، فالناظر في التفاسير التي اختارها الإمام يجد أن أغلبها لم يقتصر على علم التفسير فقط، بل تعداه إلى علوم أخرى، فلعل الإمام كان يقصد إلى التفاسير التي جمعت بين أكثر من علم، كما يلاحظ أيضاً أن التفاسير المختارة إما أنها كانت ذائعة الصيت في زمنها، وتجاوزت شهرتها بلدها، وكثُر من أهل العلم مدحها كتفسير الطبري أو قدحها كتفسير الزمخشري، أو أنها لم تكن معروفة فأراد الإمام أن يُعرف بها كتفسير يحيى بن سلام وتفسير ابن عرفة والله أعلم¹.

خامساً: أن هذه التفاسير أغلبها كانت تدرس في جامع الزيتونة آنذاك.

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، دراسة علمية بقلم الأستاذ محمد رجب البيومي، ص 1.

المبحث الثاني: جهود الإمام في التفسير وعلوم القرآن

المطلب الأول: أهم ملامح مسلكه في التفسير

لم يخلف الإمام الفاضل بن عاشور تفسيراً كاملاً ولا جزئياً للقرآن الكريم ولكن وجدت له بعض المحاضرات فسر فيها بعض الآيات من القرآن سنحاول من خلالها استنتاج مسلك الإمام في التفسير من خلال تفسيره للآية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١١٢﴾ [الأنعام: 162].

" بين يدي السورة: سورة الأنعام مكية باتفاق فعن ابن عباس: (أنها نزلت في مكة ليلاً جملة واحدة)¹.

تسمى سورة الأنعام لورود ذكر الأنعام فيها: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝١١٣﴾ [الأنعام: 136]².

وعن ابن المنكر قال لما نزلت سورة الأنعام سبّح رسول الله ﷺ وقال: لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق³.

قال الأصوليون هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة أحدهما: أنها نزلت دفعة واحدة والثاني أنفيّ عنها سبعون ألفاً من الملائكة والسبب أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعادي وإبطال مذاهب المبطلين والملحد⁴.

¹ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص 121.

² وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشرعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1418هـ، ج 7، ص 126.

³ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ، 1990، ج 2، باب تفسير سورة الأنعام، رقم الحديث 3226، ص 344.

⁴ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ط: 2، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ، ج 12، ص 471.

سياق الآية:

قال الإمام الفاضل بن عاشور: "والآية التي هي موضوع تفسيرنا وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ هي آية يتبين من موقع افتتاحها بـ "قل" أنها ترجع إلى حالة من الحالات وهي الحالة التي يتأكد فيها أن يكون الكلام مشتملاً عليها مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: 91] في الصورة الأولى من الصور الثلاث التي أشار إليها البيضاوي. وهذا موقع لكلمة "قل" فيفتح هذه الآية الكريمة ليتبين على وجهه إلا إذا تبين موقع الآية من سياق الكلام الذي قبلها"¹.

ولذلك فإنه ينبغي أن نستعرض هذا السياق حتى يتبين لنا عن عيان ملموس أن موقع "قل" في صدر هذا الكلام إنما هو موقع متأكد كموقعها في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فإن هذه الآية هي من سورة الأنعام، ومعلوم أن سورة الأنعام سورة مكية بلا خلاف، إلى آخرها، وأنها نزلت جملة واحدة".

ويذهب الإمام إلى أنه إذا كانت سورة الأنعام مكية كلها ونزلت جملة واحدة كما يشير إليه الحديث السابق، فإنه عند الرجوع إلى الاختلاف في المكي والمدني وتجاوز الأسس الدارجة في التفريق بينهما وهي: التاريخ والمكان وصيغة الكلام، فالطريقة الأنجع هي التي ترجع إلى المعنى ولا تعتمد لا على المثل ولا على الزمان ولا على المكان، وهي الطريقة التي ارتضاها الإمام أبو إسحاق الشاطبي حين قسم القرآن العظيم باعتبار ما يشتمل عليه من المعاني وباعتبار ما يؤخذ منه من التشريع والأحكام المتعلقة بالقلوب والمتعلقة بالجوارح إلى أنه يتألف من تشريع مكّي وتشريع مدني.

سورة الأنعام مكية:

قال الإمام الفاضل بن عاشور: "فإننا نتبين أن سورة الأنعام هي مكية بهذا المعنى وسندنا في ذلك تاريخ نزولها والظرف الذي نزلت فيه من حياة الدعوة المحمدية الكريمة. وأنه لمن المعلوم أن تسمية هذه السورة بسورة الأنعام يقتضي شيئاً لربط غرضها ومعناها بكلمة الأنعام التي جعلت علماً عليها،²

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، المحاضرات المغربية، مرجع سابق، ص 150.

² المرجع نفسه، ص 151.

وشأنها في ذلك شأن غيرها من سور القرآن العظيم التي سميت بأسماء هي في الحقيقة ليست إلا أمارات لمراجعة الحفظ، وهي تستند غالبا إلى الأشياء أو الألفاظ التي وردت بصورة مفردة في تلك السور التي تكون مميزة لها عند الحافظين، وليس لذلك أي ارتباط بالمعنى والغرض والوحدة المعنوية والغرض الذي تقوم عليه السورة".

ظروف نزول السورة:

ثم بين الإمام ملايسات نزول السورة واعتبرها متلاقية مع هذا الظرف وموفية بالغرض الذي يتطلع النبي ﷺ إليه من القرآن العظيم، وهو تلقين الحجة للنبي ﷺ وتأليف نفسه الكريمة وتثبيت موقفه في مقارعة المعاندين والمعارضين النبي، فالغلظة التي قوبل بها النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة إكانت مثيرة لحزن شديد في نفسه ﷺ، وقد قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُ﴾ [الأنعام: 33] خصوصا التكذيب والجحود من قبلهم، حتى أن ذكر التكذيب والجحود والعناد إنما تردد في هذه السورة ترددا كثيرا مطردا فلذلك ناسب غرض تلقين الحجة وتأليف النفس وتثبيت الموقف الاقتضاء بالتوجه إلى النبي ﷺ بخطاب فريد كالذي في هذه السورة¹.

سياق الآيات في سورة الأنعام:

ثم شرع الإمام الفاضل بن عاشور في تفسير الآيات حيث اعتبر ابتداء السورة بالحمد مناسبا للمقام لما في الحمد من التطمين لنفس النبي ﷺ وإشعارها بأن تجعل ملاحظة النعمة قاضيا على ملاحظة المحنة. ثم بين تعالى أن الخلق كله راجع إليه، وأن لا خالق سواه، وأن الكفر والإنكار مع ذلك يقوم في وجه هذه الحقيقة وفي هذا السياق وقع نسج عجيب بين التشنيع بالإنكار والكفر من جهة، وبين ما انتسج من تلك الحكاية التشنيعية من الوعيد والتذكير عسى أن يكون في ذلك إقامة حجة على الكافرين الجاحدين بالتوجه إلى النبي ﷺ بخطاب فيه التقوية والتمكين من الحجة في الحوار بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: 10] ثم بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 12] ثم وقع الانتهاء إلى ذكر أن المستمعين إليه بين عارف مكابر، وبين مستمع طموس على قلبه، وان عاقبة الجميع هي الندامة وأنه ينبغي أن يستعصم بموقف المعرفة

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، المحاضرات المغربية، مرجع سابق، ص 152.

وموقف التواضع الذي ينبغي لمقامه الكريم ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ [الأنعام: 50]. ثم وقع الرجوع إلى بيان انفراد الله تعالى بالعظمة وأن الإنسان يلتجأ إليه التجاء المضطر ويجأ إليه، وذلك هو الغرض الذي ابتداء بقوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ [الأنعام: 59].

لينتقل الإمام بعدها إلى تفسير التمثيل بقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ومن جاء بعده من الأنبياء ليكونوا بذلك قدوة للنبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُدَّتْهُمْ أَمْثَلُهُ ﴾ [الأنعام: 90] ثم وقع الالتفات إلى اليهود من أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 91] وعظم عليه أمر الكذب على الله. وبين لهم هول المعاد وأظهر عظمة آيات الله في الكون وأنها تقتضي أن لا تكون العبادة موجهة إلا إليه بقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: 102] ثم بين أن هذا البيان ليس هو لطمع في اهتداء هؤلاء ولا رجوعهم إلى الحق فأعلن اليأس منهم وأمر النبي ﷺ بالإعراض عنهم فقال: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [الأنعام: 104]. وبين أن الضلال غالب، وأن الهدى نادر بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: 116]، وان مظهر ذلك الضلال إنما يبدو في سوء السلوك العملي أعني به التوجه إلى غير الله تعالى بما هو حق الله تعالى وحده من العبادة الذي يرجع إلى تقريب القرابين لغير الله تعالى وإلى قتل الأولاد امتثالاً للشركاء الذين اتخذوهم، وإلى تحجير الأنعام وتسبيحها، وبين أن نعمة الزرع والضرع كلها من الله تعالى، وأن جميع النعم منه وجميع الكائنات من خلقه فما الفرق بين الذي جعلوه لله وبين الذي جعلوه لغير الله، وان الذي حرّمه لم يحرّمه إلا بدون نص الحرّم مات الحقيقية من قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: 151].¹

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، المحاضرات المغربية، مرجع سابق، ص 153 - 154.

وانتهى بعد ذلك إلى ذكر أهل الكتاب والمشرّكين ببيان أن أهل الكتاب أنكروا القرآن وأن المشرّكين استندوا إلى الأُمّية، وقطع عذر كل من الفريقين في ذاته. ثم بين أن كل واحد من هذه العناصر سيجزى جزاء الوفاق بقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160].

"ثم توجه إلى أمر النبي ﷺ بأن يعرض عن هؤلاء وأن يقبل على الاعتزاز بالهدى بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 161]. ثم أن يجعل عمله خالصاً لله تعالى في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ وبذلك يتبين أن موقع قل إنما هو موقع متعين لأنها ذكرت في مقام آخر، وانقطاع عن كلام كان موجهاً إلى غير النبي ﷺ إلى كلام موجه إليه، ليقدر ﷺ بذلك ما ينبغي له أن يكون مقبلاً عليه، من معرفة الحق الذي لا يبالي فيه بأمر المخالفين والملاحظ أن كلمة "قل" قد تكررت في سورة الأنعام من أولها إلى "قل" هذه ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أكثر من أربعين مرة، وإن "قل هذه" إنما وقعت موقعاً وسطاً بين قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنَىٰ رَبًّا﴾ بصورة جعلت إعلان العقيدة أولاً وإعلان حسن السلوك ثانياً، وإعلان القطيعة مع المعاندين واليأس منهم ثالثاً، بحيث إن السلوك الذي أمر به ﷺ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ﴾ إنما هو سلوك مبني على ملاحظة مقدمته التي هي رسوخ عقيدة التوحيد وغايته ونتيجته التي هي الإعراض عن المشرّكين والمعاندين وعدم المبالاة بهم".

نكتة بلاغية:

ثم لفت الانظار إلى بعض الجوانب البلاغية التي احتوتها الآية وفيه نكتة تشعر بانتهاء الكلام على الطرائق البلاغية المعهودة وهي نكتة رد العجز على الصدر التي هي فن من فنون حسن الاختتام الذي يعبر عنه عند البلغاء ببراعة المقطع... فإنه حين تقدم ذكر الصلاة في قوله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ وتقدم ذكر الذبائح لغير الله التي هي النسك وأمر النبي ﷺ بأن يكون أول من أسلم فيما تقدم فإن جميع هذه المعاني من أن الصلاة لله والنسك له، وأن النبي ﷺ يكون أول من أسلم، هي المعاني التي تكررت هنا على معنى رد العجز على الصدر.

ثم أن معنى الإعراض عن المعاندين وعدم المبالاة بهم هو أيضا معنى من معاني التي يحسن الانتهاء إليها والتي تكون مناسبة لانتهاء الكلام على معنى براءة المقطع¹.

فإنها تضمنت الأمر بالصدع بأمور هي سبعة عند التفصيل وهي أن الصلاة لله، وأن النسك لله وأن المحيا لله، وأن الممات لله، وأن الإخلاص لله، وأن النبي ﷺ مأمور من الله، وأنه أول المسلمين².

ما جاء في الآية:

في الآية ترسيخ لأربعة أمور: الصلاة والنسك والمحيا والممات وأنها علقت باسم الجلالة الدال على ذات الله تعالى موصوفا برب العالمين وفي وصف الله تعالى "رب العالمين" إشارة إلى برهان التوحيد. وأما الأمر الخامس فهو الإخلاص الذي يرجع إلى ملاحظة التوحيد في العبادة واستحضار العبادة لا تكون إلا لله وحده بحيث تنزه عن الشريك وتنزه عن الرياء. وبذلك يحسن أن تكون جملة (لا شريك له) جملة حالية لا أن تكون جملة استثنائية لأجل أن يتبين أن العبادة إنما تكون لله تعالى مع ملاحظة هذا المعنى في حال العبادة في الصلاة والنسك وفي جميع أعمال المحيا وأعمال الممات وهي أنه متقرب إليه بذلك ملاحظ أنه لا شريك له.

وأن الأمر السادس وهو أن النبي ﷺ مأمور، وهذا يرجع إلى تأكيد المعنى المكرر في القرآن من أن النبي ﷺ ليس إلا وسيطا ومبلغا. وفي ذلك إيقاف واضح على معنى العبودية الشاملة ببيان أن التكليف إنما يكون بخطاب الله تعالى، وأن الأعمال إنما توصف بالحسن أو القبح باعتبار تعلق أمر الله تعالى النبي بها.

وأما الأمر السابع وهو أن النبي ﷺ أول المسلمين فإنه لا يخفى أن الإسلام إنما هو عبارة عن امتثال للأوامر والنواهي وفي هذا عتاب للغافلين عن حقيقة العبودية بالتنبيه على أن أكرم الناس على الله تعالى ليس إلا أول المكلفين بما كلف به عباده الآخرين حتى لا يظن بالنبي ﷺ على شفوف بالنسبة إلى أمته أو بالنسبة إلى المبلغ إليهم وأنه يبلغ أمرا هو خارج منها ﷺ في غير ما قام الدليل على خصوصيته فيه مما يرجع غالبا إلى زيادة التكليف بالخصوصية لا إلى نقصه. ولذلك فأول الممثلين

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، المحاضرات المغربية، مرجع سابق، ص 155.

² المرجع نفسه، ص 156-158.

لكل شريعة بالطبع إنما هو الممثل لتبليغها للناس قبل أن يحصل الامتثال إلى المبلغ إليه، فتلاوة النبي ﷺ لهذه الآية إنما هو مظهر من مظاهر الامتثال، والتزامه ﷺ ذلك إنما هو مظهر من مظاهر مواظبته على الطاعات ودأبه ﷺ عليها"¹.

وقد اتخذ الإمام من شرح الآية منطلقاً في الحديث عن القرآن العظيم وذلك في مقدمة طويلة تعرض فيها إلى:

- بيان أن هذه معركة قديمة، وأن القرآن نفسه تولى الرد على ذلك.
- ثم ينطلق بعد ذلك إلى الآية محل الشرح والتي تبدأ بكلمة المخاطب "قل" للرسول ﷺ وصورها المختلفة في القرآن الكريم وموضعها من سورة الأنعام.
- ثم بين أن هذه السورة تحمل سياقاً واحداً.
- وأثبت أنها نزلت جملة واحدة.
- لينتقل بعدها لذكر ظروف نزول السورة.
- ويبين أنها مكية.
- ثم ذكر نكتة بلاغية
- ليختتم بما جاء في الآية من أحكام.

المطلب الثاني: بعض آرائه في مسائل علوم القرآن

لم يترك الإمام الفاضل بن عاشور مؤلفات في علوم القرآن، ولكن كانت له بعض المحاضرات تناول فيها بعض الأبواب في علوم القرآن، نذكر منها:

أولاً: الإعجاز: يرى الإمام الفاضل بن عاشور أن الإعجاز سمة عامة تتصف بها جميع الرسائل السماوية، وإنما تميز القرآن على غيره من الكتب كونه هو مصدر الرسالة ومصدر الإعجاز فيقول: "فأمر الإعجاز إذا هو أمر عام في الديانات، ولكن الذي يمتاز به القرآن وتمتاز به الدعوة الإسلامية هو أن المعجزة التي هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، إنما جاءت في نفس كلمة

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، المحاضرات المغربية، مرجع سابق، ص 159.

الدعوى وفي نفس الوحي الذي أوحى به للنبي ﷺ¹. ولقد أثبت الإمام الفاضل بن عاشور الإعجاز القرآني من ناحية الأسلوب والقصد والنقل واللغة وذلك من خلال المقارنة بين القرآن الكريم وباقي الكتب السماوية الأخرى، حيث يقول: "وهذه المقارنة التي تجري بين القرآن والكتب السماوية إنما ترجع إلى نواح من المقارنة:

الأولى من ناحية القصد: فإننا حين ننظر إلى القرآن العظيم في ذاته نظراً موضوعياً ، ونجري مقارنة موضوعية بحسب ما اشتمل عليه نص كل كتاب من الكتب السماوية ما يبين معنى القصد من إنزال ذلك الكتاب ، فإننا نجد أن قصد الإعجاز من إنزال القرآن العظيم هو أمر ثابت في القرآن العظيم في ذاته، فالقرآن هو الذي وصف نفسه بأنه معجز... وهو ما يبين الفرق بين القرآن والكتب الأخرى أن الكتب الأخرى تذكر المعجزة وتتحدى المعجزات الواقعة، على معنى أنها أمور خارجة عن نص الكتاب بالدعوى، ومحكية فيه ومشار إلى وقوعها على وجه الحكاية. ولذلك فإن القرآن من ناحية القصد يمتاز بأنه كتاب إعجاز وهذا أمر لا يشترك فيه معه كتاب من الكتب السماوية الأخرى.²

وأما الناحية الثانية وهي طريقة النقل: وهذه تابعة للمعنى الأول لأنها مرتبطة بقصد الإعجاز فإنه لا يخفى أن القرآن العظيم لما كان معجزة فإنه كان موجهاً إلى المؤمنين والجاحدين على سواء، بل إنه كان موجهاً إلى الجاحدين أكثر من توجيهه إلى المؤمنين لأنهم المطالبون بمعارضته والمراد إفحامهم بعجزهم عن المعارضة.³

وعليه أصبح نقل القرآن العظيم وشيوعه ليس خاصاً بالأمة التي آمنت به وتعبدت به، ولكنه نقل بشيوع مشترك بين المؤمنين وغير المؤمنين.

لهذا عرف الإمام النقل بالتواتر بأنه اتفاق عدد يستحيل تواطؤهم على الكذب واستحالة التواطؤ على الكذب لا تأتي من كثرة العددية، وإنما تأتي من اختلاف المبادئ واختلاف المواقف واختلاف الأفكار واختلاف المصالح، وذلك هو الذي جعل التواتر يعتبر طريقاً قطعياً من طرق نقل

¹ ينظر: الفاضل بن عاشور، ومضات فكر، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982م، ص12.

² ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، المحاضرات المغربية، مرجع سابق، ص 143-144.

³ المرجع نفسه، ص144.

الأخبار، وهو ما انفردت به الأمة الإسلامية عن باقي الأمم، زيادة على أن نقل القرآن العظيم إنما كان أصله بالطريق الشفهي، بطريق الحفظ والتلقي اللفظي وشيوع النص من حافظ إلى حافظ من المؤمنين المطمئنين إليه، ومن غير المؤمنين الحريصين على معارضته ورفضه، الذين كانوا يحتفظون بنصومه لأجل ما يريدون من النقض عليها.

وأما الناحية الثالثة: "وهي ناحية اللغة فإننا عندما ننظر إلى العصر الذي نزلت فيه الكتب السماوية، ونكتفي من ذلك بأشهر الكتب السماوية وهي كتاباً العهد القديم والعهد الجديد.

ثم ننظر إلى أن القرآن العظيم أيضاً بذلك الاعتبار فإننا نجد أن اللغة التي كانت لغة موسى عليه السلام لما نزلت عليه التوراة... اللغة العبرانية القديمة المنقرضة... وذلك إنما كان في القرن السادس قبل المسيح، أي بعد رسالة موسى عليه السلام بأكثر من ثمانية قرون".

والأمر نفسه بالنسبة لنصوص الإنجيل هي بين نصوص بالسريانية ونصوص باليونانية، و المسيح عليه السلام ما نطق بكلمة السريانية ولا بكلمة اليونانية. وبذلك كان الموجود من الإنجيل كالموجود من التوراة إنما هو عبارة عن حكايات أو ترجمات أو تلاخيص.

"أما القرآن العظيم فإن اللغة التي جاء بها والتي هو موجود بها الآن يتلى بين الناس جميعاً، إنما هي لغة عصره التي هي لغة الشعر الجاهلي، والتي هي اللغة العربية الجامعة التي انتظمت فيها اللهجات القبلية المختلفة، والتي كانت لغة العصر الذي نزل فيه القرآن العظيم إنما هو بنصه الأصلي في الحرف الذي به كما يقتضيه عصره وأن الكتب الأخرى إنما هي في ترجمات إلى لغات أخرى".¹

أما من الناحية الرابعة: وهي الأشد اتصالاً بموضوعنا الذي نقصد إليه، هي ناحية الأسلوب، فإن أسلوب التعبير في القرآن العظيم قد بني على أن هذا الكلام إنما هو كلام الله تعالى. فالذي يستند الكلام إلى نفسه والذي هو معاد ضمير المتكلم في القرآن العظيم، بحسب ما تدل عليه الصيغة القرآنية دلالة موضوعية، إنما هو الله تعالى.

و"القرآن الكريم قد وصف نفسه صراحة بأنه كلام الله تعالى والرسول ﷺ الذي يريدون أن يسندوا القرآن إليه، ليس وجوده في النص القرآني إلا وجود المخاطب أو وجود المتحدث عنه. والله

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، المحاضرات المغريبات، مرجع سابق، ص 153 وما بعدها.

تعالى يخاطبه أحياناً بمثل قوله تعالى "أَفَرَأَيْتَ إِنْ أَهْلَكْنَاهُ أَهْلًا" وبمثل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 04]، أو يتحدث عنه بمثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ حَمَّذُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29] في حال أن نصوصاً أخرى للكتب السماوية عندما نبحت عن شخص النبي نجده حاضراً في تلك النصوص باعتبار كونه هو المتكلم، وباعتبار أن ضمير المتكلم عائد إليه. فالقرآن العظيم من الوحي سواء كان ذلك الوحي الذي تضمنته الكتب السماوية الأخرى أم كان الوحي الذي تضمنته السنة النبوية الشريفة فإنه وحي من الله تعالى لا محالة ولكنه لا يشتمل على هذا الأمر الزائد على الوحي وهو أنه وحي لكلمة الله تعالى التي أصدرها على صيغتها تلك مراداً بها الإعجاز.¹

ثانياً: علوم القرآن:

وقد ذم الإمام الفاضل بن عاشور التوسع في علوم القرآن وعاب على بعض الباحثين إدخال ما ليس منها فيها فقال: "ولأجل ذلك بالغ كثير من الباحثين في العلوم في تعديد ما سموه بعلوم القرآن حين خرجوا بعلوم القرآن عن معناها الأخص إلى المعنى الأعم للمعارف التي ترتبط بالقرآن العظيم مما نشأ عليه أو نشأ له أو امتزج به، حتى ذكر القاضي أبو بكر بن العربي تفسيره أن جملة علوم القرآن فيما لخص هو من المعاني التي تستفاد من القرآن العظيم وترتبط بفرع من فروع المعرفة فتتصل بالقرآن من قريب أو من بعيد، إنما تبلغ سبعة آلاف وأربعمائة وخمسين علماً".²

ومن أمثلة المصنفات المبالغة: كتاب الإتيقان للإمام السيوطي ثم من جاء بعده من الذين صنفوا في العلوم والكتب مثل (طاشكيري زاده)³ في "مفتاح السعادة" و(حاجي خليفة)⁴ في كتاب "كشف الظنون"، فاعتبروا من جملة العلوم القرآنية ما لا يشهد له أصل من القرآن، بل ما لا يشهد أصل بصدقه مثل علوم الطلاسم وغيرها...

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، المحاضرات المغربية، مرجع سابق، ص 148.

² المرجع نفسه، ص 29.

³ طاشكيري زاده: (1495-1561م) أحمد مصطفى بن خليل، أبو عصام الدين طاشكيري زاده مؤرخ، تركي الأصل مستعرب، ولد بروسة بأنقرة درس الفقه والحديث وعلوم العربية له كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ومفتاح السعادة. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم الأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (ط: 15، دار العلم، بيروت، 2002م) ج 1، ص 257.

⁴ حاجي خليفة: كاتب جغرافي ومؤرخ عثماني عارف للكتب ومؤلفها مشارك في بعض العلوم، ولد بالقسطنطينية سنة 1017هـ، صنفه فرانز بابنجرأكبر موسوعي بين العثمانيين من مصنفاته "كشف الظنون هن أسامي الكتب والفنون" مات سنة 1068هـ. ينظر: يوسف البان سركيس، محجم المطبوعات، ص 732.

ويسوق الإمام مثالا توضيحيا يبين من خلاله مقدار اتساع مدى ما تفرع من القرآن العظيم من الأوضاع العلمية والتصانيف في اللغة العربية في عصور الحضارة الإسلامية ، وهو علم التفسير في معناه الأخص: "فإننا إذا أخذنا مادة التفسير ورجعنا إلى معجم من معاجم التأليف ولنجعله كتاب "كشف الظنون" الذي صنف في القرن الحادي عشر، فإننا نجد أن كشف الظنون ذكر في التفاسير فقط من بين كتب العلوم القرآنية نحو^١ من ثلاثمائة وخمسين تفسيراً هذا ما اشتمل عليه كتاب كشف الظنون بالذكر. فإذا اعتبرنا أن الذي ذكره كشف الظنون مما صنف في العربية ليس إلا قليلا من كثير، لأن أكثر الكتب التي صُنفت قبل القرن السابع إنما ضاعت تلاشت بنكبة بغداد، وأن الذي صنفه صاحب كشف الظنون في كتابه مما وقف عليه عياناً ، أو مما وقف على ذكره، ليس إلا عددًا قليلاً بالنسبة لما لم يقف عليه مما لم يزل الناس من عصره إلى الآن منهمكين في الاستدراك عليه^١. فإننا نستطيع أن نستحضر من هذا أن الكتب التي يمكن أن يحصيها الإنسان بذكرها -لابمجرد تقديرها تقديرًا - مما يرجع إلى مادة التفسير وحدها تصل إلى نحو من عشرة آلاف كتاب".

فهذا المثال يدل دلالة واضحة على ما كان للقرآن العظيم من اثر في التكوين الفكري ما كان يحث به من العناية العلمية في عصور الإسلام.

ولقد بين الإمام الفاضل عناية المسلمين بضبط القراءات القرآنية وإقرار النبي ﷺ اختلافها فقال: "واعتنى الناس من عهد النبي ﷺ بضبط القراءات المختلفة للقرآن العظيم، وعرضت عليه ﷺ، على اختلافها فأقر هذه وتلك، ثم ابتلأوا منذ القرن الثاني يضعون الضوابط لهذا الأمر الذي كانوا يتلقونه التلقي الواقعي، فبدأ وضع علم النحو وعلم الخط وعلم التجويد والرسم التوقيفي مما تعلق بالقرآن العظيم لقصد الحفاظ على صيغته."

ثم جاء لمقصود الأهم وهو امتداد لمعانيه، فانتصب الفقهاء من الصحابة ومن بعدهم من فقهاء التابعين إلى غيرهم المذاهب يستنبطون الأحكام الفقهية ويضعون المناهج التي اختلف بها مذهب عن مذهب لذلك الاستنباط، ومما بدأ بضبطه الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله في رسالته، وهي رسالة أصول الفقه التي بين فيها مناهج الاجتهاد وطرائق الاستمداد من القرآن، وبين أن المعاني الفقهية التي

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور: ومضات فكر، مرجع سابق، ص 31.

يختلف الفقهاء فيها ليست إلا مستمدة من القرآن العظيم، والأمر نفسه في مسألة إعجاز القرآن الذي نشأ منه علم البلاغة، وارتبط مبحث الإعجاز بالعقائد باعتبار كونه عامل الإيمان كما قلنا فأصبح عاملاً من عوامل تطور علم الكلام واتساع البحث في العقائد وفي علم التوحيد إلى غير ذلك مما يضيق المقام بذكره.¹

ويذهب الإمام إلى أننا إذا أردنا أن نحاسب أنفسنا عن موقفنا من القرآن العظيم لا نجد أننا فقراء في العلم، لا العلم الذي هو ناشئ من القرآن أو له، ولا العلوم التي هي ممزوجة بالقرآن مما نشأ في عصور الحضارة الإسلامية، أو مما استمدته الأمم الإسلامية في العصر الحاضر، ولكننا نجد أنفسنا في فقر إلى معنى من التوجيه الباطني وإلى صورة من الاستسلام لدعوة القرآن والاصطباغ بها والتخلق بآدابها ترسخ في النفوس ذلك المعنى من الخشوع وحسن التلقي والاطمئنان الذي توجهنا فيه إلى القرآن العظيم لما لهرق نفوسنا الخشوع الذي كان القرآن جديراً أن ينزله على الجمادات من الحجارة والجبال كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]².

ثالثاً: موقفه من أسباب النزول

يعتبر مبحث أسباب النزول من المباحث المهمة في علوم القرآن لدورها في فهم النص القرآني وصحة تأويله لذلك اهتم به العلماء وأفردوه بالتأويل، حيث يقول عبد العظيم الزرقاني: القرآن الكريم قسمان، قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق؛ وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان وقسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة، وقد انتدب له جماعة أفردوه بالتأليف منهم علي ابن المديني شيخ البخاري، ومنهم الواحدي والجعبري وابن حجر، ومنهم السيوطي الذي وضع فيه كتاباً حافلاً محرراً سماه: "الباب النقول في أسباب النزول".

¹ ينظر: محمد الفاضل بن عاشور: ومضات فكر، مرجع سابق، ص 32-33.

² المرجع نفسه، ص 34.

معنى سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثةً عنه أو مبدئيةً لحكمه أيام وقوعه، والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ أو بعده، وإليه فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال¹.

ولقد انتقد الإمام محمد الفاضل بن عاشور أسباب النزول حيث دعا إلى ضرورة إعادة النظر في قضايا علوم القرآن عمومًا، وما تعلق منها بأسباب النزول خصوصًا²، حيث قال: «فكان انقراض تلك الملابس الوقتية التي كان بحاجة إلى معرفتها لمؤقتةً نقليةً تصويريةً، ليتمكن الآتون من استعمال القرائن والدوال التي اهتدى بها إلى معاني التراكيب القرآنية سابقوهم. وبذلك طلبوا الرجوع إلى المعارف المنقولة عن تواريخ نزول الآيات ومحالها، والمناسبات التي جاءت فيها، للاستعانة بذلك على استيضاح المعاني المقصودة من التركيب، استعانةً فقط، لأن للتراكيب دلالتها الذاتية، التي لا تحددها، ولا تتحكم في تكييفها، تلك المناسبات، وإن كانت مهيئة على استجلائها وذلك ما يرجع إلى الأخبار المتعلقة بكل جزء من أجزاء القرآن: بتعيين تاريخه، ومحلّه، وتصوير الحادثة التي اتصلت به".

وأما المعارف التي تسمى "أسباب النزول" وما هي إلا مناسبات لا أسباب حقيقية، وإن سميت أسباباً، على طريق التسامح والتجاوز، فإن العلماء متفقون على أن ما يدل عليه الكلام القرآني هو الذي يُؤخذ به على ما في دلالاته من شمول واتساع، لا يضيق منهما مراعاة الملابس الظرفية التي اتصلت بتاريخ نزوله، وهو معنى قول علماء أصول الفقه: "إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"³.

ونلاحظ أن الإمام محمد الفاضل بن عاشور كان على وعي بضرورة إعادة النظر في قضايا علوم القرآن عمومًا، وما تعلق منها بعلم أسباب النزول خصوصًا، ولمح إلى ضرورة الاهتمام على سبيل التأويل بالتناسب، وكأنه استفاد من مجهودات أبيه في هذا المجال إذ تحدث في عدة مواضع من تفسيره "التحرير والتنوير" عن علم التناسب وأهميته وخصه بجزء من مقدمته⁴.

¹ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، 1422هـ - 2001م، ج 1، ص 95.

² ينظر: علي بن مبارك، من قضايا تأويل النص القرآني عند محمد الفاضل بن عاشور، ص 10.

³ محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مرجع سابق، ص 18.

⁴ علي بن مبارك، مرجع سابق، ص 11.

كما أفرد لها الإمام محمد الطاهر بن عاشور في إحدى مقدماته وهي المقدمة الخامسة بعنوان: في "أسباب النزول" حيث تناول تعريفها وفوائدها ومعرفتها وأنواعها وذم التكلف في طلبها حيث قال: "أولع كثير من المفسرين بتطلب أسباب نزول آي القرآن، وهي حوادث يُروى أن آيات من القرآن نزلت لأجلها لبيان حكمها أو لحكايتها أو إنكارها أو نحو ذلك وأغربوا في ذلك وأكثروا حتى كاد بعضهم أن يوهم الناس أن كل آية من القرآن نزلت بسبب، وحتى رفعوا الثقة بما ذكروا. بيداً أنا نجد في بعض آي القرآن إشارة إلى الأسباب التي دعت إلى نزولها، ونجد لبعض الآي سلباً¹ ثبتت بالنقل دون احتمال أن يكون ذلك رأي الناقل، فكان أمر أسباب نزول القرآن دائراً بين القصد والإسراف، وكان في غض النظر عنه وإرسال حبله على غاريه خطر عظيم في فهم القرآن فذلك الذي دعاني إلى خوض هذا الغرض في مقدمات التفسير لظهور شدة الحاجة إلى تمحيصه في أثناء التفسير"¹.

¹ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج 1، ص 46.

خاتمة

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبعد:

فقد تم هذا البحث الموسوم بـ: "الإمام مُجَدِّد الفاضل بن عاشور وجهوده في التفسير وعلوم القرآن" وفي الختام نسجل الآتي:

- 1- يعد الشيخ مُجَدِّد الفاضل بن عاشور واحد من الشخصيات العلمية المتميزة في التاريخ الإسلامي، فلم يؤثر العصر الذي عاش فيه على طلب العلم والاجتهاد بل أتيقن العديد من العلوم والمعارف، كالتفسير واللغة والفقه وغيرها.
- 2- يعتبر كتابة التفسير ورجاله من الكتب المهمة المختصرة في مناهج المفسرين
- 3- أبرز كتاب التفسير ورجاله دور مدرسة التفسير التونسية من خلال التعريف بتفسير (يحيى بن سلام وابن عطية وابن عرفة).
- 4- يثبت الإمام الفاضل بن عاشور الإعجاز في القرآن العظيم من أربعة أوجه وهي القصد واللغة والنقل والأسلوب.
- 5- يعرف الفاضل بن عاشور أسباب النزول بأنها معارف ومناسبات وليست أسباب حقيقية.
- 6- الإمام مُجَدِّد الفاضل بن عاشور من العلماء المعاصرين الذين كان لهم دور فعال في خدمة النص القرآني.
- 7- لعلماء تونس خدمات جليلة في مجال الدراسات القرآنية، أثرت المكتبة الإسلامية بكثير من الكتب القيمة والمؤلفات النفيسة.

التوصيات:

- جمع مخطوطات الشيخ وتحقيقها، حتى تخرج إلى النور ويستفيد منها المسلمون عامة والباحثون في التخصص بصفة خاصة.
- الاهتمام بالتراث العلمي في المغرب العربي ، وإقامة الدورات والندوات للتعريف به ونشره.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَ هُمْ يَوْمُونَ﴾	البقرة	04	55
﴿وَلَقَدْ أَسْنَهَيْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾	الأنعام	10	48
﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾	الأنعام	12	48
﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزُنُنَّكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾	الأنعام	33	48
﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾	الأنعام	50	49
﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾	الأنعام	59	49
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدُهُ﴾	الأنعام	90	49
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾	الأنعام	91	49
﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾	الأنعام	104	49
﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ	الأنعام	136	46
﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾	الأنعام	151	49
﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾	الأنعام	160	50
﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	الأنعام	161	50
﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	الأنعام	162	46
﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾	الفتح	29	55
﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ	الحشر	21	57
﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ﴾	الكافرون	01	47

فهرس الأحاديث النبوية

رقم الصفحة	طرف الحديث
46	«ت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة»
46	«لقد شيع هذه السورة من الملائكة.....»

فهرس الأعلام المترجم لهم

الاسم	رقم الصفحة
الشاذلي خير الله	9
الحبيب بورقية	9
محمود الماطري	9
عبد العزيز الثعالبي	10
مُحمَّد الطاهر بن عاشور	14
أبو جعفر الطبري	27
فخر الدين الرازي	29
مُحمَّد الآبي	32
مُحمَّد البيسلي	32
يحيى بن سلام	34
ابن خلدون	35
مُحمَّد الواقيدي	35
طابشكري زادة	55
حاجي خليفة	55

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: الكتب

1. ابن رجب الذيل، طبقات الحنابلة، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط:1، مكتبة العبيكان، 1425هـ، 2005م.
2. ابن عبد البر الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق على مُجَّد البيجاوي، ط:1، دار الجليل، بيروت، 1992م.
3. أبو الوفاء القرشي، الجوهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق: عبد الفتاح مُجَّد الحلو، ط:2، دار هجر الجيزة 1413هـ – 1993م.
4. أحمد القصاب، تاريخ تونس المعاصر 1881م – 1956م، ط:1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986م.
5. أحمد بن يوسف القرماني، أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، تحقيق: أحمد حطيط ، ط:1، عالم الكتب، 1995.
6. أحمد مُجَّد الأذنوي، طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزري، ط:1، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1997م
7. الاذنوي، طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزري، ط:1، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1997.
8. بلقاسم الغالي: شيخ الجامع الأعظم مُجَّد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، ط:1، دار بن حزم بيروت، 1996م.
9. بن فرحون، الديباج المذهب، تحقيق: مُجَّد الأحمدى أبو النور، ط:لا، دار التراث، القاهرة.
10. جمال أبو حسان، المجلة الأردنية، مُجَّد الطاهر بن عاشور سيرة ومواقف، العدد 1430، 3هـ – 2009م.
11. جميل بيضون، النطور شحاتة، تاريخ العربي الحديث ، ط:1، دار الأمل للنشر والتوزيع، 1992م.

12. حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط:3، دار الكتب العربية والشرقية، تونس.
13. الداودي، طبقات المفسرين، تحقيق لجنة من العلماء ، ط:1، دار الكتب العلمية بيروت 1403هـ - 1983م.
14. راغب السرجاني، قصة تونس من بداية الثورة إلى 2011م، ط:1، دار أقلام، القاهرة، 2011م - 1432هـ.
15. رشا طارق شفيق سليمان، الروايات الواردة في سورة الفاتحة من تفسير الرازي، أطروحة مقدمة للحصول على درجة الماجستير في أصول الدين، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2016م.
16. سيد أحمد الإمام بن خضري، منهج الإمام البخاري في التفسير من خلال كتابه(الصحيح)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ج1، ص28 وما بعدها، إشراف: مُجَدِّ الخضر ناجي ضيف الله.
17. السيوطي، طبقات المفسرين، تحقيق: علي مُجَدِّ عمر، ط:1، مكتبة وهبة عابدين، 1396هـ - 1976م.
18. شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط:لا، مؤسسة الرسالة.
19. صادق الزمرلي، أعلام تونسيون، ط:لا، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
20. صفر الحوالي، أصول الفرق والأديان والمذاهب الفكرية، ط:لا، لا:دار.
21. الطاهر المعموري، جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي، ط:لا، دار العربي للكتاب.
22. عادل نويهض، معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط:3، مؤسسة نويهض الثقافية، 1409هـ.
23. عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون.
24. عبد الرحمن الثعالبي، من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، تحقيق: صالح الخرفي، ط:1، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1995م.
25. عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: مُجَدِّ أبو الفضل إبراهيم، ط:لا، المكتبة العصرية، صيدا بيروت.

26. عبد الرحمن حللي، مسيرة علم التفسير من منظور الشيخ الفاضل بن عاشور في كتابه التفسير ورجاله.
27. عبد السلام بن سودة، اتحاف المطالع بوفيات إعلام القرن الثالث عشر والرابع عشر، ط:1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
28. عبد العزيز الثعالبي، من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، ترجمة: صالح الخرفي، ط:1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م.
29. عبد العزيز الزرقاني، مناهل اعرافان في علوم القرآن، تحقيق أحمد بن علي، ط:لا، دار الحديث، القاهرة، 1422هـ . 2001م.
30. عبد الفتاح الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، ط:3، دار القلم، دمشق، 2007م – 1429هـ.
31. عبد المنعم حنفي، موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، ط:1، دار الرشاد، مصر ، 1993م .
32. عبد الوهاب تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى.
33. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج3، (لا.ط؛ لا.م: مؤسسة الرسالة، د.ت)
34. فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ط:2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ.
35. قاسم أبو العدل السوداني الجدامي، تاج التراجم في طبقات الحنفية، تحقيق: مُجَدَّ خير، رمضان يوسف، ط:1، دار القلم، دمشق، 1413هـ – 1992م.
36. مانع حماد الجهري، الموصوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ط:3، دار الندوة، الرياض، 1417هـ.
37. مُجَدَّ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984م.
38. مُجَدَّ الفاضل بن عاشور التفسير ورجاله تقديم مُجَدَّ الحبيب بن خوجة، ط:لا، دار سحنون، تونس، 1999.
39. مُجَدَّ الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، تقديم مُجَدَّ رجب البيومي، ملتقى أهل التفسير..
40. مُجَدَّ الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، ط:لا، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1999.
41. مُجَدَّ الفاضل بن عاشور، محاضرات مغربيات.

42. مُجَدِّد الفاضل بن عاشور، ومضات فكر، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982م.
43. مُجَدِّد الهادي الشريف، تاريخ تونس، ط:3، دار سراس، تونس.
44. مُجَدِّد بن أحمد بن عثمان شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمر، ط:1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1418هـ - 1998م
45. مُجَدِّد بن خوجة، صفحات من تاريخ تونس، ط:1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
46. مُجَدِّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين.
47. المستشار عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية، ط:8، دار البشير، 2008م-1429هـ.
48. من قضايا تأويل النص القرآني عند الشيخ مُجَدِّد الفاضل بن عاشور، على بن مبارك
49. مؤسسة مؤمنون بلا حدود، قسم الدراسات الدينية.
50. وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1418هـ.
51. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط:لا، دار صادر، بيروت 1977م.
52. يوسف أحمد علي، البيضاوي ومنهجه في التفسير، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أم القرى.
53. يوسف مناصريه، دور النخبة الجزائرية في الحركة الوطنية التونسية بين الحزبين العلميين، ط:لا، دار هومة للنشر، الجزائر، 2014.
- المواقع الإلكترونية:
54. أحمد تمام: مقال مُجَدِّد الطاهر بن عاشور على خطى الإصلاح، تاريخ التصفح: 12 مارس 2018، archue.islamonline.com
55. دعوة الحق، جوانب من شخصية الشيخ مُجَدِّد الفاضل بن عاشور، تاريخ التصفح 12 ماي 2018م، www.habous.gov.ma.
56. المكتبة القيروانية، تاريخ التصفح 6 ماي 2018م، www.facebook.com.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	أ
الفصل الأول: التعريف بالإمام محمد الفاضل بن عاشور	
المبحث الأول: عصر الشيخ	8
المطلب الأول: الحالة السياسية	8
المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية	11
المطلب الثالث: الحالة العلمية والفكرية	12
المبحث الثاني: حياة الشيخ محمد الفاضل بن عاشور	14
المطلب الأول : اسمه ونسبه ونشأته	14
المطلب الثاني: شيوخه وتلامذته	16
المطلب الثالث: رحلاته العلمية	18
المبحث الثالث: آثار الشيخ ووظائفه وثناء العلماء عليه ووفاته	19
المطلب الأول: مؤلفاته	19
المطلب الثاني: أعماله ووظائفه	20
المطلب الثالث: ثناء العلماء عليه	21
المطلب الرابع: وفاته	22
الفصل الثاني: جهود الإمام محمد الفاضل بن عاشور في التفسير وعلوم القرآن	
المبحث الأول: بطاقة عن كتاب التفسير ورجاله	24
المطلب الأول: توثيق نسبة الكتاب للمؤلف وسبب التأليف	24
الفرع الأول: توثيق نسبة الكتاب للمؤلف	24
الفرع الثاني: سبب التأليف	24

فهرس الموضوعات

25	المطلب الثاني: موضوع الكتاب ومسلكه فيه
25	الفرع الأول: موضوع الكتاب
26	الفرع الثاني: مسلكه في الكتاب
31	المطلب الثالث: طريقة عرض الكتاب وأهم اختياراته فيه
31	الفرع الأول: طريقته في عرض الكتاب
32	الفرع الثاني: أهم اختياراته في الكتاب
38	المطلب الرابع: أهم مميزات الكتاب وأثره في من جاء بعده
38	الفرع الأول: مميزات الكتاب
38	الفرع الثاني: أثره في من جاء بعده
39	المطلب الخامس: أهم مصادره في الكتاب وأبرز المآخذ
39	الفرع الأول: أهم مصادره في الكتاب
40	الفرع الثاني: محتوى الكتاب
41	الفرع الثالث: المآخذ عليه
46	المبحث الثاني: جهود الشيخ في التفسير وعلوم القرآن
46	المطلب الأول: أهم ملامح مسلكه في التفسير
52	المطلب الثاني: بعض آراءه في علوم القرآن
61	خاتمة
الفهارس	
64	فهرس الآيات القرآنية
65	فهرس الأحاديث النبوية
66	فهرس الأعلام المترجم لهم
67	فهرس المصادر والمراجع
71	فهرس الموضوعات

جَمَلُكَ